حتى يحين اللقاء

أمل حجازي

رواية: حتى يحين اللقاء
المؤلف: أمل حجازي

تدقيق لغوي: عبد الحكيم رأفت
تنسيق وإخراج داخلي: لخضر بن الزهرة
تصميم الغلاف: كريم آدم
رقم الإيداع: 26827 / 2019
الترقيم الدولي: 978/977-85607-8-7
الطبعة الأولى: 2019
رئيس مجلس الإدارة: أ. د. محمود محمد السعيد
المدير العام: هالة البشبيشي

الهالة للنشر والتوزيع
AL HALA PUBLISHING & DISTRIBUTION

بريد إلكتروني: info@alhalapublishing.com
تليفون : 01110161117
العنوان: 26 ش 261 المعادي الجديدة
صفحة الفيسبوك: مركز الهالة الثقافي
https://www.facebook.com/alhalapublishing

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة للدار، ولا يحق لأي شخص أو مؤسسة أو جهة إعادة إصدار هذا الكتاب، أو جزء منه، أو نقله بأي شكل من الأشكال، أو وسيلة من وسائل نقل المعلومات، ولا يجوز تداوله إلكترونيًّا نسخًا أو تسجيلًا أو تخزينًا، دون إذنٍ خطيٍّ من الدار.

جميع الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبِّر عن رأي كاتبها، و لا تعبِّر بالضرورة عن رأي دار النشر.

حتى يحين اللقاء

(رواية)

أمل حجازي

الإهداء

لَنْ أَذْكُرَ في هذا الإهداء أشخاصًا بأعينهم مثل كل روايةٍ؛ فالقصة اليوم مختلفةٌ. هي قصة الحياة والموت. تلك الحياة التي نأتي إليها زائرين وراحلين. لم نختر متى نأتي؟ ولن نختار متى سنرحل.

هي رحلةٌ بقائمةٍ من الأشخاص سابقة التجهيز، وعليك فقط أن تدفع نفقاتها بنفسك، وتنتظر حتى النهاية.

يقولون إن الإهداء يكون للأغراب فقط عندما أوقع لهم في حفلات توقيع الرواية، أما من يعرفني فسيجد نفسه بين طيّات هذه الأوراق؛ ولهؤلاء، ها أنا أهديكم روايتي «حتى يحين اللقاء».

إلى كل من مرَّ على قلبي في هذه الحياة.

إلى كل من دخل حياتي متعمّدًا لأنه يحبني، أو بالصدفة فوقع في حبي.

أسطورة عباد الشمس

تقول الأسطورة اليونانية القديمة أنّ «كلوني» كانت حورية غاية في الجمال، وكانت تخرج من نبعها كل صباح؛ لتمشط شعرها الذهبي الطويل، فيتألق في ضوء الشمس ويخيّل للناظرين من بعيدٍ أنها هالةٌ من الذهب اللامع البراق، وقد وقعت ذات يومٍ في غرام «أبولو» أحد آلهة الإغريق، وهو يخرج بعربته من أبواب السماء، وظلت تتابع عربات الخيول والتي يمتطيها «أبولو» كل يومٍ من شروق الشمس وحتى الغروب، ولمّا غاب «أبولو» ولم يعد يظهر. أمست «كلوني» حزينةً كئيبةً، وامتنعت عن الطعام والشّراب، وعندما أرادت أن تتحرك من مكانها في اليوم التاسع من انقطاعها عن الطعام والشراب عجزت عن الحركة؛ فبقيتْ في مكانها كامنة، وثبّتتْ أقدامها في الأرض تثبيتًا، وتحوّلتْ ذراعها وأصابع يديها إلى أوراقٍ خضراءَ، وتحول وجهها المشرق بهالته من الشعر الذهبي المصفّف إلي زهرةٍ يانعةٍ ناضرةٍ جميلةٍ.

انقلبتْ الحورية «كلوني» إلى زهرة عباد الشمس، ولكنّها مع ذلك كانت ولا تزال تدور برأسها العسجدي البرّاق صوب إله الشمس «أبولو» مقتفيةً أثره طوال اليوم أينما ذهب وحيثما توجه؛ لذلك أطلق عليها فيما بعد زهرة عباد الشمس.

إنها الزهرة الأقرب لقلبي.

بعيدًا عن الأساطير فأنا أرى أنّ سحر هذه الزهرة يكمن في قوتها

ورقتها، في وقفتها، في عِزَّةٍ مرفوعة الرأس موجهةً وجهها الجميل نحو الشمس. تتبع النور مهما خَفُتَ وتتبع الطريق مهما بَعُد.

كوني مشرقةً كزهرةِ عباد الشمس.

كوني رمزًا للصفاءِ والحبِّ.

انشري السعادة كلّ يومٍ مع شروق الشمس.

لا تُمضي عُمرَكِ خائفةً من قدوم العاصفة فتضيع منكِ متعة انتظار شمس كل يومٍ جديد.

البداية

كم أكره النهايات!

بداية الأشياء دائمًا ما تحمل كل المتعة، وكل الشغف، والكثير من المغامرة.

بداية الخلق. بداية الحياة. أول صرخةٍ للمولود. أول ابتسامةٍ. أول كلمةٍ يتذوقها لسانُه. أول طعمٍ للحياة. أول دقة قلبٍ. أول حبٍ في الحياة. أول كلِّ الأشياء.

للبدايات سحرٌ لا ينتهي، ولا يقاوَم... ولكن ولأنّ لا شيء يدوم، سيأتي ذلك اليوم الذي تنتهي فيه كل الأشياء. ستهرب منك الحياة وتتسرب الروح من الجسد ويفنى كل شيء!

لا أعرف هل اقتربتْ النهاية أم لعلّها قريبةٌ من البداية؟ هل جاء موعد الرحيل؟ هل أكتب حتى أتغلب على خوفي من النهاية؟ ربما... ولكنني ما زلت خائفة!

ربما لأن الموت محتومًا فأنا أكرهه أو ربما أكره اليقين في كل شيء. أوليست أجمل الأشياء تلك التي تولد احتمالًا؟ ولكن يبدو أنه علينا اعتبار الموت أمرًا عاديًّا حتى تخفَّ وطأته قليلًا، أو حتى نتعوّد عليه. هو بالفعل أمرًا عاديًا، تمامًا كالميلاد والحب والزواج، كالمرض والشيخوخة، كالخوفِ والجنونِ وأشياءٍ أخرى.

لا أعرف كيف سأحيا بدونك؟ لا أعرف كيف سيصدق عقلي رحيلك؟ وهل لو حدث وصدّق عقلي، كيف سيجرؤ قلبي أن يدق

بعدك؟ هل سيدق وقد نزعت منه روحه؟

كتبت هذه الرسائل لكل من دخل في دائرة حياتي فأحببته... كتبتُها لعلها تسكن وجع خيبتي وخوفي عليكم بعد الرحيل.

لستُ مهووسةً بالحياة، ولكنني فقط أحاول أن أراها من منظورٍ مختلفٍ، من زاويةٍ أكثرَ طُمأنينةٍ... زاوية قلبي!

البعض يشعر بالخوفِ من المجهول، أو قد يصيبه الفزع من القادم. كلنا نخشى ما يخفيه القدر، وقد يكون بعضكم مثلي لا يحب النهايات أيًّا كنتم؛ فأنتم جميعًا بحاجةٍ لهذه الرسائل.

تحمل هذه الرسائلُ كل معاني الحياة. كل ما يجب أن نفعله في رحلة عمرنا، قد لا تلتزم تمامًا بالخطة المرسومة التي كتبها لك القدر، ولكنك شئتَ أم أبيتَ فإنك لن تنجو إلا بهم جميعا.

اقرأ الرسائل جيدًا... و انتبه للعلامات التي يرسلها لك القدر!

رو اية حتى يحين اللقاء

الرسالة ما قبل الأولى

(القوة)

لا أعرف من أين جاء حبي للكتابة؟ لا أعرف منذ متى و أنا أحب الأقلام والأوراق وكل ما يخص الكتابة. كنت طفلةً صغيرةً حين علّمتني أمي الحروف الأولى من اسمي. كنت شغوفةً بكل هذا الإبداع الذي يفعله القلم. كنت مولعةً بحركات قلمي الرصاص الصغيروهو يشكّل الحروف، ويرسم الكلمات و أنا أتابع أمي وهي تكتب اسمي، وعندما وُلد اسمي على الورق تأملت فيه طويلًا وكأنني أتأمل نفسي التي على وشك أن أعرفها. اسمي المكون من ثلاثة أحرفٍ فقط سيحكي كل شيء عني.

كنت طفلةً لا أتعب من البحث عن الحقيقة؛ حقيقة كل الأشياء. لم تكن تكفيني ردود أبي وإجابات أمي عن أسئلتي التي لا حصر لها. ولا أتذكر يومًا هرب فيه أبي من الرد أو ضلّلتني أمي عن الإجابة الصحيحة.

وعرفت منذ صغري أن القلم سيكون رفيقي، وأن الورق سيكون وسادتي التي سأحتضنها كل يوم لتحكي لي ما كتبته عن نفسي، وعن الناس وعن الحياة.

مرّت الأيام وكبرت الطفلة الصغيرة. كبرت ولم تنس يومًا أن تدون مذكراتها، لم تنس أن تكتب خواطرها، ولم تنس قطّ أن تحتضن

وسادتها من الورق وتنقش عليها بأصابعها اللينة رسوماتٍ تختزل فيها أفكارًا وحكايات حياة بنتٍ صغيرةٍ.

وجاء اليوم الذي غيّر مجرى حياتها للأبد. ذلك اليوم الذي عرفت فيه بمرض أمها. وقع الخبر عليها كالصاعقة. فكيف تتقبل أي بنت فكرة انهيار أمها أمام عينيها؟ كان المرض يزحف بشراسةٍ على جسد أمها الواهن، كان يأكل جزءًا جديدًا كل يومٍ ويأخذ معه قطعةً من روحِ «فرح» وهي تقف عاجزةً لا تستطيع أن تخفّف عن والدتها ذلك الألم القاتل الذي يداهمها كل حين.

كانت تبقى ليلتها بجانبها، تسهر حتى الساعات الأولى من الصباح؛ ترى شمس كل يومٍ جديدٍ وهي ترسل أشعتها الدافئة التي تتسرب إلى الغرفة المظلمة حيث رائحة الدواء، رائحة المرض، رائحة العجز... ولعل أقسى الروائح كآبةً كانت رائحة الموت التي تجيء وتذهب وتلوح بكل جرأةٍ بنهاية كل شيء!

لم تحب «فرح» أن تنتبه لكل تلك الروائح الكئيبة التي تملأ المكان. كانت تجري كل صباحٍ نحو شباك غرفة أمها وتسمح لنور النهار بضجيجه أن يضيء كل الأشياء. كان ضوؤه المباغت يدخل النور إلى أعماقها غصبًا عنها. كانت تسمح لنسمات الصباح الخفيفة بأن تداعب شعرها البنيّ الناعم وتتخلل النسمة الباردة كل كيانها وتتنفس معها زفيرًا قد يهدأ قليلًا من وجع قلبها.

كانت ليلةً باردةً برودة الثلج. تسمّرت الأشياء في أماكنها. كان البرد قارصًا. كانت الحياة تتسرب من الشرايين وكأن الدماء على وشك أن تتجمد في العروق. طرقت الرياح المتسارعة في الخارج على أبواب ونوافذ المنزل طرقًا مفزعًا. كان الجو المتوتر يعلن بكل قوةٍ عن

قدوم عاصفةٍ شديدةٍ في الطريق. وعند طرف السرير جلست تبكي بحرقةٍ، تكوّرت في مكانها منذ ساعات، ربما غفت قليلًا ولكن صوت الرياح كان كفيلًا بإيقاظها بل وبإفزاعها. استيقظت مذعورةً على صوت الرعد وذهبت تطمئن على أمها الممدّدة على السرير هناك. كانت تتأكد من أنها ما زالت حيّةً. كانت ترقد هناك من شهورٍ، منذ أن قرّر الطبيب أنْ لا علاج بقِى لحالتها وعليها أن تقبلَ بقضاء الله وأن تأخذها إلى المنزل.

ما أقسى أن تمضي حياتك و أنت عاجزٌ عن مساعدة أعز الناس لديك. ما أقسى الحياة وهي تعطيك درسًا في القوة. درسًا سيعلمك الكثير مهما زعمت أنك لست بحاجة إليه. درسًا كالصفعة ستقلب حياتك رأسا على عقب إلى الأبد.

كانت المرة الأخيرة التي تسمع فيها صوت أمها. كانت تهمس وتتمتم بكلماتٍ قليلةٍ غير مترابطةٍ. وعلى بُعد سنتيمتراتٍ قليلةٍ كانت «فرحِ» تضع أذنها على فم أمها لتستمتع إليها في كلماتها الأخيرة. كانت تحبس دموعها وتروّض نبراتِ صوتها البائسة محاولةً إخفاء الرعبِ المغلّفِ بالحزن الشديد. كانت تريد لتلك اللحظات الأخيرة أن تحيا في ذاكرتها إلى الأبد، وربما تحيا في مخيّلة أمها إلى يومِ آخر في عالمِ آخر، ولكن هل يوجد ذاكرةٌ للأموات؟

همهمت الأم وخرج صوتها ضعيفًا ومتقطعًا وهي تقول: «حبيبتي متخافيش مش حاسيبك أبدًا»...

قالت جملتها وسكت كل شيء. هدأت الأنفاس المتلاحقة. ابتلعت الحياة الهواء فلم يعد هناك مزيدٌ من الأكسجين داخل الغرفة.

«فرح»... لم يعد لاسمها أي معنى الآن!

توفي والدها منذ سنواتٍ طويلةٍ وليس لها أية إخوة. كانت في العاشرة من عمرها عندما فقدت والدها. لم تكن تعي بعد معنى فقدان الأب. لعبت أمها الدورين معا كانت أمًّا و أبًا في آنٍ واحدٍ. لم تشعرها قط بيتمها دون وجود أب. لم تكن تعلم أنها سترحل هي الأخرى مبكّرًا وتتركها بيتمٍ جديدٍ.

عليها أن تواجه الحياة وحيدة دون معلمتها الأولى. هي الآن في بداية العشرينات. السن الذي تتفتح به الزهور، ولكن الوردة قد انفصلت عن الغصن، سقطت ذابلةً تاركةً وراءها الغصن الأخضر اليافع وقد انثنى ظهره قليلًا ولكنّه حتمًا سيعود ويشتد وتُطرَح منه وردةٌ جديدةٌ.

مخيفةٌ هي الوحدة. مخيفةٌ تلك الحياة التي تبدو حافلةً بكل الناس إلا ممن نحب. مخيفةٌ إلى الحد الذي يجعلك توقف الحياة بيديك وتمنعها من أن تستمر. ستتوقف عن ممارسة طقوس الحياة ولو لفترةٍ من الزمن. ستتوقف حدادًا على أرواحٍ ذهبتْ بلا عودةٍ لهذه الأرض. ذهبت إلى مكانٍ أفضل، كما يقولون لنا، أوكما نحب أن نصدّق فربما ننعم ببعض الراحة. ولكن لا أحد يعلم إلى أين يذهب الموتى؟ وماذا يفعلون الآن؟ هل يشعرون؟ هل ير اقبوننا؟ هل فعلًا هم في مكانٍ أفضل؟ وماذا لو كانوا أفضل وهم معنا؟ ماذا لو كانوا يعيشون في رغدٍ وسعادةٍ؟ هل لأنّ الأشياء يجب أن تنتهي؟ هل لأنّ لكلِّ شيء عمرًا محددًا؟ ولكن ماذا سنفعل من دونهم؟

قرأت قصةً قديمةً تحكي أن بنتًا صغيرةً سألتْ أباها:

لماذا أفضل الناس يموتون سريعًا؟

فردّ الأب:

إذا كنتِ في حديقةٍ أي الورد تقطفين؟!

«كنتُ أتساءل دومًا لماذا يختار الموت أفضل مَن فينا؟
ولكنني أعتقد أنني قد عرفت الإجابة مؤخّرًا في كلمة أحدهم:
لأنهم نجحوا في الامتحان مبكرًا، فلا داعي لوجودهم».
أحمد خالد توفيق

مرت بضعة أيامٍ على وفاة أمها. كان المنزل صامتًا خاليًا من الناس، خاليًا من كل المعزّين الذين حضروا لعزاء والدة «فرح». تلك العزاءات التي تصيبني دائمًا بالخوف والدهشة في آنٍ واحدٍ. لا أرى الحياة بعدها كما كانت أبدًا. ربما يكون هذا لفترةٍ قصيرةٍ تعود بعدها عجلة الحياة للدوران من جديدٍ. ننسى أنفسنا، وننسى مَن ترَكنا وودَّعنا وذهب إلى عالمٍ بعيد.

دائمًا ما ترهقني نفسيًّا عبارة «الحي أبقى من الميت»... يا لها من عبارةٍ أنانيةٍ وقاسيةٍ وللأسف حقيقيةٌ جدًّا!

كانت «فرح» بمفردها في المنزل عندما اضطرت أن تترك حضن سريرها الذي كانت ترقد عليه والدتها إنه آخر ما تبقّى من رائحتها، آخر ما تبقى من ذكرياتٍ.

كانت تجلس وتراقبها كل أشياء أمها الراحلة. كانت تحاول الهرب دائمًا من لمس أشياءها. ما زالت الغرفة تحاوطها برائحة الموت والحياة معًا. ما زالت تلك الكنزة الصوف تحمل شيئًا من عطرها، شيئًا من عرقها، وشيء شبيهٌ بعطر الياسمين المعتّق، كانت «فرح»

تتنفس معه الأمومة. ما زالت حقيبة أمها السوداء تتربص بها كل مساءٍ عندما تحاول إغماض عينيها. وعلى المنضدة تقف قارورة عطر «كوكو شانيل» وكأنها تنظر إليها. لم تقربها يد «فرح» منذ أن رحلت أمها. فكيف تستدعي رائحتها وهي تعرف ما قد يجلبه هذا العطر لروحها المنهكة؟!

وفوق الأريكة تراودها علبة الشوكولاتة عن نفسها؛ تلك الشوكولاتة التي جلبتها لها «فرح» خِصّيصًا في أواخر أيامها متناسيةً كل أوامر الأطباء وضاربةً بكل تعليمات العلاج عرض الحائط فلتستمتع أمها بمذاقٍ حلوٍ للحياة، قد يكون الأخير!

بعد رحيل الأحبة يجتاحك الحنين لكل تفاصيلهم الدقيقة فتخشى عليها من ذاكرتك الخائنة؛ فقد تنسى صوتهم، رائحتهم، صوت ضحكاتهم ولكنك أبدًا لن تنسى كيف كنت تحبهم؟

دق جرس الباب. مر أسبوعان على رحيل الأم. نزلت درج الفيلا الخالية إلّا من «فرح» وكلبيها الضخمين بالخارج للحراسة. نزلت الدرج مسرعة فنباح صوت الكلبين كان عاليًا وحتمًا مزعجًا جدًا لكل الجيران في منطقة المعادي القديمة الهادئة والر اقية دائمًا.

– مساء الخير... إزيك يا فرح؟

– مساء النور... مين حضرتِك؟ ردت «فرح» على تلك السيدة التي طرقت الباب وطرقت معه الصمت الذي يسكن المنزل.

– إنتي متعرفنيش... أنا «ثريا» صديقة ماما الله يرحمها... أكيد سمعتي عني منها، بس أنا ماشفتهاش من سنين طويلة علشان أنا عايشة في روما.

– آه... أهلًا أهلًا يا طنط... ماما حكيت لي كتير أوي عن حضرتِك... حمد الله ع السلامة اتفضلّي.

الرسالة الأولى

(الذكريات)

أخذت تتأمل حيطان المنزل حولها. كانت تسترجع ذكرياتٍ غابت عنها منذ أن سافرت. كان كل شيء كما هو. وكأن الوقت لم يمض والساعات لم تمر ولم تجْرِ سنين العمر حتى أخذت صديقتها الغالية.

«ثريا» صديقة «فريدة» منذ أيام الضفائر ومريلة المدرسة الابتدائية الكحلي. كانت تسكن بجوارها في نفس حي المعادي. قضَوْا أجمل سنوات العمر؛ تلك السنوات الأولى من حياة كل بنت والتي تحمل بدايات كل الأشياء الجميلة. بداية حياة عذراء تتلمّس طريقها الجديد حتى تبلغ الغد المثير بكل جديد.

تزوجت الصديقتان وفرقتهما الأقدار. سافرت «ثريا» لإيطاليا مع زوجها الطبيب الذي تعرفت عليه أثناء دراستها في قسم اللغة الإيطالية في كلية الألسن؛ حيث كانت تدرس هي و«فريدة». وظلّت الصديقتان على اتصال كل هذه السنوات الطويلة؛ تبعدهما السنون تارة وتقربهما زيارةٌ سريعةٌ للقاهرة تارةً أخرى.

دار حديث التعارف السريع بين «ثريا» و«فرح» والسؤال عن أحوالها بعد وفاة الأم. وجاء وقت معرفة السبب الحقيقي من وراء هذه الزيارة المفاجئة بعد كل تلك السنوات من الغياب.

– أنا سبت مصر من 25 سنة... سافرت إيطاليا مع جوزي وهناك جبت أولادي «عمر» و«كارمن». فضلت أنا وفريدة على اتصال على طول... هي زارتني مرة واحدة بس في روما لما كانت في شهر العسل... قضينا كلنا أجازة مش ممكن أنساها أبدا... كان «عمر» ابني لسّه عنده أربع سنين... كان نفسها تيجي روما كتير بس للأسف محصلش.

أكيد انتِ عارفة عشقها لإيطاليا وللحضارة الرومانية القديمة اللي درسناها مع بعض أيام الجامعة. وأكيد هي حكيتلك عنّي كتير... بس أنا ماشفتكيش من زمان... كنتِ طفلة صغيّرة آخر مرة زرت فيها مصر... والسنين جريت... انشغلت فيهم بالأولاد وشغلي وللأسف الحياة خدتني!

أنا فضلت على اتصال بيها طول السنين دي لحد من تلات سنين بس كل شيء اتغير، من ساعة ما عرفت بمرضها!

– تلات سنين؟!

إزاي؟ احنا معرفناش إلا من سنة واحدة بس... قصدِك إنها كانت عارفة من تلات سنين ومقالتش لحد؟! ردت «فرح» المندهشة من كلام «ثريا».

– أيوة كانت عارفة... وكانت عارفة كمان إن مش فاضل لها كتير في الدنيا... كانت قوية ومؤمنة ومش خايفة من الموت... الحاجة الوحيدة اللي كانت بترعبها إنها حتسيبك لوحدك.

– يا حبيبتي يا ماما!

لم تتماسك «فرح» وانهارت باكيةً... فهي تعلم بالفعل كم كانت أمها متعلقة بها، وكم كانت هي محور حياتها منذ وفاة والدها وهي

طفلةٌ صغيرةٌ.

تمالكتْ نفسها ثم سألتها: بس ماما كانت كويسة... ماكنش باين عليها أي مرض من تلات سنين! إزاي قدرت تخبي عليا؟ إزاي أنا ما حسيتش بيها؟ معقولة خبت مرضها كل ده من غير أنا ما آخد بالي؟ قالت «فرح».

– يا حبيبتي، ماما كانت فعلا كويسة... لما عرفت من الدكتور إن عندها ورم سرطاني في المخ رفضت أي تدخل جراحي وفضّلت الأدوية وبس... حتى الأدوية البسيطة وبس... الدكتور بتاعها كان رافض وقالها لازم تلتزم بجرعات محددة من الكيماوي بس هيا رفضت وبإصرار. أنا الوحيدة اللي كنت عارفة كل ده. حاولت كتير معاها علشان تسمع الكلام بس ما رضيتش أبدًا. حاولت أوصل ليكي و أقولك بس هيا حلفتني وقالت لي أني ممكن اخسرها لو إنتي عرفتي... حتى إني لما حبيت أنزل أزورها رفضت وقالتلي عايزاكي تفضلي فاكرة صورتي الحلوة بس قبل المرض.

– كان مفروض اعرف علشان أحاول أنقذها... بس انا عارفة ماما، كانت عنيدة جدًا! قالت «فرح» بصوتها الباكي وكأنها تشتكيها لصديقتها.

– هيا كانت عارفة إن مرضها في مرحلة خطيرة وماحبتش تتعذب في العلاج وحبت تعيش حياتها زي ما مكتوب لها في الدنيا من غير عذاب العلاج اللي هيا كانت عارفة انه مالوش لازمة.

هكذا كانت «فريدة» مثالًا للمرأة القوية التي لا تنهزم. لم تعجبها فكرة الاستسلام لهذا المرض الذي سيرتب لها حياتها من جديد.

سيرتب لها حياةً مليئةً بالألم تارةً وباليأس تارةً أخرى.

ما أقسى أن ترتب لك الحياة موعدًا مع الألم. تنقلب عندها كل موازين الفرحة فوق رأسك وتضيق عليك الدنيا فلا تراها إلا من خرم الإبرة؛ صغيرةً، خانقةً ومؤلمةً للغاية.

وقد رتبت «فريدة» لحياتها مسارًا جديدًا بعيدًا عن كل ما رتبه لها القدر، ربما لا تعجبك ما فعلته ولكنها حتمًا كانت حرة في اختياراتها النهائية في الدنيا.

أتساءل، هل لو أتتك الفرصة لترسم رسمةً نهائيةً لأيامك المتبقية في الحياة، كيف سيكون شكلها؟ وهل ستكون رسمتك أجمل من تلك المُعَدّة لك مسبقًا؟ ربما... ومَن يعرف؟... فربما سترسمه هو المقدّر لك فعلًا بترتيب سري من القدر!

– «فريدة» كانت بتبعتلي كل يوم أخبارها وأخبار مرضها وتطوراته من غير ما أي حد يعرف. كانت بتعافر مع الدنيا... بس هيا كانت مبسوطة أوي... عارفة ليه يا «فرح»؟ سألتها «ثريا».

– مبسوطة؟...

– كانت مبسوطة إنها لقت فكرة تخليها مطمنة عليكي حتى وهيا مش معاكي... وكمان حتخليكي تحسي إنها جنبك على طول.

– فكرة إيه؟ سألتها «فرح» المتلهفة لكل كلمة تقولها «ثريا»... فيبدو أن هناك أسرارًا كثيرةً لم تكن تعرفها عن أمها الراحلة!

– في الأول لازم تقرئي الرسالة دي. ماما كتبتهالِك قبل وفاتها بأسبوع واحد بس. وأخرجت «ثريا» ظرفًا كبيرًا به رسالةٌ منقولةٌ من رسالةٍ إلكترونيةٍ، طبعتها «ثريا» حتى تسلّمها لِيَد «فرح» بنفسها.

الرسالة الأولى...

ابنتي الغالية...

لما تقرئي الرسالة دي حكون أنا في مكان أحسن إن شاء الله... ماتزعليش يا حبيبتي... أنا عارفة إني أكيد حوحشك... بس ما تخافيش أنا جنبك على طول... ودلوقتي حتعرفي ازاي.

أنا سايبالِك كنز!

«ثريا» تبقى صديقة الطفولة والشباب وتعرف كل حاجة بالتفصيل وهيا حتقولك على كل حاجة... اسمعي كلامها.

أنا كتبت لك رسايل؛ كل رسالة ليها عنوان، العنوان ده هو مضمون الرسالة... المطلوب منك انك تفهمي المغزى من كل رسالة... أنا رتبت الرسايل بطريقة معينة وكل واحدة حتوصلك من «ثريا» في الوقت المناسب، زي ما انا فهمتها... ممكن الرسالة توصل في وقتها، وممكن توصل متأخرة، ممكن تفهميها في وقتها أو تفهميها بعد وقت طويل... المهم إن الرسالة توصلك... هي دي أهم حاجة.

كلنا محتاجين رسايل زي دي علشان تنور لنا الطريق... وكلنا بتوصلنا فعلًا رسايل بس مش كلها بنفهمها، أو مش كلها بتوصل في وقت مناسب.

أتمنى يا صغيرتي توصلك رسايلي في وقتها... أتمنى تفهمي مغزى كل رسالة.

ابنتي الحبيبة...

سجلي إنجازاتِك اليومية... أعمالك الإنسانية، حتى لحظاتك التي تظنها عابرةً ولكنها تستوطن القلوب؛ قد تكون كلمةً طيبةً، لمسة رحمة، ابتسامة لفقيرٍ... تذكري دائما أن عملك يجب أن يكون خالصا لله وحده... ضعي هذا دائما أمام عينيكِ وامضِ في طريقِك مطمئنة هادئة.

تمسكي برداء الطهر فهو تاجك وعزك... كوني قوية العقل وليّنة القلب... لا تقدمي تنازلاتٍ ولا تسمحي لأحدٍ أن يسلبكِ حقكِ... كوني أملًا وسلامًا... كوني النور وانثريه... كوني «فرحًا» دائمًا!

تذكري دائمًا أن تكوني قويةً مهما قست عليكِ الحياة. والقوة التي أقصدها ليست في المال أو الجاه أو القوة؛ كل تلك الأمور قد تزول يومًا، ولكن قوة العقل والأخلاق لن يستطيع أحدٌ أن يسلبها منكِ أبدًا.

لا تكوني دميةً جميلةً بلا عقلٍ. كوني متفردة الجمال بعقلِك، نادرة الأخلاق برقيّك، ناعمة المشاعر بلينِ قلبك، ومتفجرة الأنوثة بحيائك.

ابحثي عن الحب في كل دهاليز الحياة... الأشياءُ القبيحةُ فقط ينقصها الحب... الأشياء الناقصة دائمًا يكملها الحب... الحياة لا تحلو إلا بالحب.

حِبّي الحياة جيدًا... تعلمي أن تحبي كل ما تفعليه... وسيعود الحب لكِ يومًا كقطرات المطر في يوم قاحلٍ تروي به عطش حياتِك... وتذكري دائمًا أن تبدئي بنفسك... اغمريها ودلليها بالحب

أولًا... وسيأتي اليوم الذي كنتُ أتمنى أن أكون فيه بجوارك... ذلك اليوم الذي سينال من قلبك أحدهم... لا تخشِ على قلبك من الوقوع في الحب... اتركي لإحساسكِ زمام الأمور... لا تخافي يا صغيرتي فقد دعوتُ لكِ مسبقًا بأن تأتيَكِ كل الأشياء الجميلة حتى بعد رحيلي... ولن يخيب أبدًا ظني مَنْ تركتكِ أمانةً عنده... لا تخافي سيحفظك الله وسيحرسك من كل شر... لا تخافي فقد دعوت الله...

وقد وعدني!

إمضاء / ماما

حتى يحين اللقاء...

ومع تلك الرسالة الأولى مرفق... ورقةٌ صغيرةٌ مطويةٌ مكتوبٌ بها:

«اجمعي الذكريات ودوّنيها، فهي ملاذكِ الذي قد تهربين إليه عندما تتسرب لقلبكِ الوحدة... اجعليها ذكرياتٍ سعيدةً بقدر المستطاع... أعلم أنكِ ستجمعين معها المؤلم والمحزِن أيضًا ولكن صدقيني فكل الذكريات تجعل منكِ امرأةً قويةً كل يومٍ».

«جمعي كل الذكريات بتاعتنا... صورنا... الفيديوهات بتاعتنا... حتى كلامنا سوا... خليني جنبك على طول... مش حتحسي بالوحدة أبدًا طول ما احنا سوا... كل يوم كلميني... بصي لصورتنا اللي بنحبها مع بعض واحنا في أجازة الصيف... بصي أد ايه أنا كنت فرحانة، بصي أد ايه أنا بحبك... وحفضل احبك على طول».

«اجمعي ذكرياتنا أولًا وسأبقى بجوارك إلى الأبد».

تركتها «ثريا» بين كلمات أمها في الرسالة الأولى وذهبت، على وعدٍ

بلقاءٍ قريبٍ عندما تكون هي مستعدة لرسالتها الثانية من أمها. وقد أبلغتها أنها في إجازة طويلة في مصر، ستقضيها في مهمة واحدة فقط: تنفيذ وصية صديقتها وتسليم الرسائل لها تباعًا.

تركتها بين أوراقٍ من حنينٍ وبعض صورٍ من الماضي وكثيرٍ من الذكريات. تتأرجح الأحداث في ذاكرتها؛ فيقفز بها الزمن على حافة السعادة تارةً وعلى بوابة الحزن تارةً أخرى، وبين تلك وذات تكتمل الحكاية دائمًا!

لم تكن فكرةً سيئةً أبدًا تلك التي طلبتها والدتُها في رسالتها الأولى. قد تبدو صعبةً أو ربما تبدو مخيفةً للبعض؛ فمَن منّا يستطيع أن يجمع أرشيف سنوات عمره ويبحث في دهاليز الذاكرة عن كل ما فات؟ نحن نحيا وتنسينا الأيام ما مضى. نمضي في الحياة على أملٍ أن تقصَّ لنا الحياة حكاياتٍ جديدةٍ كل يومٍ. هل تحب أن تسمع قصة الأمس التي حكتها لك أمُّك، أم أنك تفضل قصةً جديدة؟

وبدأت «فرح» تقضي ساعات يومها في تجميع ذكرياتها مع والدتها الراحلة. بدأت بالفيديوهات المصوّرة، لعلها كانت تحتاج أن تراها من دمٍ ولحمٍ من جديدٍ، صوتًا وصورةً من جديدٍ.

كانت تجمع كل اللقطات التي كانوا بها معًا. تذكرتْ رحلاتهما سويًّا. رحلة الصيف في فرنسا بعد انتهائها من الثانوية العامة. كانت تلك هدية نجاحها وتفوقها. كانت رحلةً ذات مذاقٍ خاصٍ جدًا. لم تكن تلك الرحلة الأولى لهما معًا خارج مصر. «فريدة» كانت تحمل درجة الدكتوراه وتعمل معيدةً في قسم اللغة الإيطالية في نفس جامعتها التي تخرجت فيها. تلك الجامعة التي شهدت لقاءها بوالد «فرح». كانت قصة حبٍّ رائعةٍ كما حكت لها أمها. كان رجلًا بكل ما تحمله

الكلمة من معنى. كان نموذجًا لزوجٍ تتمناه كل امرأةٍ. تعرف «فرح» قصة حب أبويها منذ صغرها، ربماً لم تتذكر والدها كثيرًا لأنه رحل مبكرًا عن عالمها، إلا أن قصص والدتها عنه كانت كافيةً.

حياة «فريدة» كانت حافلةً بالكثير من الأحداث والكثير من الإنجازات... ربما لم تمهلها الحياة متسعًا من الوقت لتكمل كل ما كانت تحلم به. كانت طالبةً متفوقةً في كل سنوات دراستها؛ كانت متفائلةً، مشرقةً مقبلةً على الحياة، لم تكن عثراتها أو انكساراتها إلا دفعةً قويةً للأمام. تزوجت مبكرًا و أنجبت «فرح» التي ملأت حياتها بكل الفرحة وكل الحب. كانت ترى فيها معاني الحياة الجميلة. تتذوق معها الأيام ولكن بشكلٍ جديدٍ؛ حياةٌ بطعم البراءة، بطعم الحنان، بقليلٍ من الجنون وقليلٍ من الصبر... والكثير من الحب!

قصة حبها لوالدها كانت أكبر دليلٍ على أن الحياة عندما تحبك تهديك أكبر نعمة لديها... تهديك الحب.

ولأنّ الحياة كما تحنو تقسو أحيانًا، فقد رحل والد «فرح» مبكرًا، وهي لم تكمل عامها العاشر. ذهب وخطف معه قطعةً من قلب «فريدة»، ذهب وترك لها كنزًا من الذكريات الجميلة لتمضي حياتها بين حكاية حب انتهتْ مبكرًا ولكنها ستحيا في القلوب وعلى الورق إلى الأبد.

لن يتبقى منك عندما ترحل إلا ذكرياتٌ وقصصٌ طويلةٌ... عِشْ حياتك واعمل على أن تكون ذكرياتك تستحق أن تروى وقصصك تستحق ألا تنسى!

وبدأت تجتمع قطع البازل الناقصة عندما بدأت «فرح» في تجميع

ذكريات والدتها الراحلة. نجحت في خلال وقتٍ قصيرٍ من ترتيب كل الصور بتواريخها التقريبية. كانت حريصةً ألا يسقط تاريخٌ أو يتعدّى تاريخٌ الآخر. قضت معظم ساعات اليوم في تجميع الصور. نظمت كل الألبومات وأضافت التواريخ الناقصة. جمعت الفيديوهات ورتبتها بترتيب حدوثها. انتهت ووقفت تتأمل هذا الكم الهائل من الأشياء المنظمة بدقةٍ أمامها.

هل هذا كل ما تبقّى لي؟

هل هذا ما كانت تريده أمي؟

هل كانت تريدني أن ألملم الذكريات حتى لا تضيع؟

ومن قال إنني سأضيعها؟

أوليس كل ما فيها محفورٌ داخل هذا القلب؟

أوليس كل ما بها من كلماتٍ عالقٌ في ذهني؟

وهل يمكن أن تنسيَني الأيام وجودكِ ولو للحظةٍ يا أمي؟

الرسالة الثانية

(العطاء)

بعد مرور أسبوعين كاملين قضتهما «فرح» في لملمة كل قصاصات الحياة التي بقت لها مع أمها، كانت «فرح» جاهزةً لاستلام الرسالة الثانية من «ثريا».

مرت تلك الأيام سريعًا كسنين العمر التي تجري ونلهث وراءها. عاشت سعيدةً بجوار أمها، كانت هي كل حياتها، ولأنها كانت تعلم أن فراقها لابنتها سيكون قاسيًا، فكرت في تلك الرسائل القصيرة لتبقى بجانبها؛ والتي ستكون مرجعا لها من خيانة الذاكرة، وقد تكون مأوى لها من وحدة الليالي الطويلة.

واستلمت «فرح» الرسالة الجديدة. لم تكن تعرف شيئًا عن فحوى الرسالة بعد، وحدها «ثريا» تعرف كل شيء ولكنها لن تخالف الوصية أبدًا.

وعدت صديقتها أن تبقى كل الرسائل سرية وأن تلتزم بتسليم رسالة جديدة في موعدها المحدد.

أخذت «فرح» الرسالة وذهبت لتلتحف بدفء أغطية السرير الفارغة والتي ما زالت عالقةً برائحة أمها. ومع الرسالة الجديدة قضت «فرح» ليلتها حائرة تفكر فيما قرأته

الرسالة الثانية...

ابنتي الغالية...

لا تنشغلي بالحياة وتنسي أن عليكِ توزيع الحب. فالحياة ليست عادلةً دائمًا، وقد حرم بعض الناس من الحب ولكننا خلقنا لنكون أسبابًا لسعادة الآخرين.

كوني يا صغيرتي من هؤلاء المحظوظين...

لا تتأخري عن عمل الخير أبدًا.

«أنا اتعلمت من أبوكِ ازاي أكون سعيدة... مش بس علشان كان هو السبب الأساسي لسعادتي... لكن علشان اتعلمت منه ازاي أسعد الناس... فيه ناس محتاجة فرحة وحب مش فلوس وبس... ناس الزمن إسي عليهم... كان دايمًا يقول لي إنهم مالهومش ذنب أبدًا في تعاستهم... وطالما احنا قادرين نفرح يبقى نقدر نسعد الناس... اتعلمت أحب كل الناس البسيطة... اتعلمت أفرّحهم علشان لقيت نفسي بفرح أكتر لما بافرحهم.

مرفق مع جوابي ده عنوان واسم دار الأيتام اللي أنا كنت بزورها... للأسف إنتي ما رحتيش معايا ولا مرّة... ساعات الواحد بيفتكر إنه ممكن يأجل كل حاجة لبكرة... بس بينسى إن بكرة ده ممكن ما يجييش... أو ييجي ومايلقكيش موجودة!

أنا كنت بروح من وقت للتاني هناك واتبرع للأطفال وأقضي وقت جميل معاهم... من بعد وفاة بابا وأنا بروح بانتظام... رحت معاه كتير... ولما مات كنت محتاجة أعمل نفس الحاجات اللي

كنا بنحب نعملها مع بعض... كنت باحس بوجوده معايا من أول وجديد... كنت باشوفه ماشي جنبي... كنت بحس بيه ماسك إيديا... كنت بعمل كده علشان أحس إنه مبسوط مني... كنت بحس انه حاسس بيا وشايف كل حاجة.

كل اللي أنا عايزاه منك إنك تروحي تزوري المكان... شوفي الأطفال هناك أد إيه بيفرحوا بزيارة الناس... هما مش محتاجين بس الأكل والشرب والعلاج والمأوى... محتاجين حاجات أهم وأثمن، محتاجين الحب والحنية... محتاجين يحسوا إنهم فرحانين... صدقيني فرحة عينيهم كافية تمدك بالسعادة لأيام طويلة».

«إسعاد الآخرين فنٌّ لا يتقنه الكثيرون... فكلمة حبٍ أو ابتسامة حنانٍ أو حتى نظرة اهتمامٍ قد تصنع كل الفرق لك وللآخرين».

إمضاء / ماما

حتى يحين اللقاء...

كان الشتاء يدق على الأبواب بكل استحياءٍ منتصف شهر نوفمبر. كان عليها أن تنفذ هذا الجزء من الوصية سريعًا، فقد حذرتها «ثريا» من أن عليها الانتهاء من كل شيء قبل بداية شهر ديسمبر حيث أن الرسالة القادمة تحمل مفاجأةً لها.

استعدت «فرح» في صباحٍ مبكرٍ بشنطةٍ كبيرةٍ تحوي ملابس وأحذيةٍ ولعبًا كثيرة أعدتها كلها لزيارة دار الأيتام.

وفي المكتب الكبير ذو الأسقف العالية والشرفة الواسعة

والنوافذ الشاسعة جلست «فرح» تنتظر مدام «صفاء». مبنى دار الأيتام كان في الماضي قصرًا منذ عصر الملك فاروق وتحول تحت رعاية الدولة إلى دار للأيتام. كانت مدام «صفاء» ونعم المديرة الصالحة. فقد حافظت على الطراز المميز للقصر. فأبقت على الحدائق الشاسعة وقد حولت أجزاء منها لملاعب ومناطق للعب الأطفال الأيتام وحدائق للتنزه والترفيه.

حكت لها مدام «صفاء» عن كل نشاطات الدار وأثنت كثيرًا على التبرعات السخية من أهل الخير. قالت لها أن أمها كانت تزورهم بصفة دورية ليس فقط للتبرع بل لزيارة الأطفال وحتى المرضى النفسيين. كانت مُحِبة للجميع. لم أرَ أحدًا يتعلق ويعطف على الغرباء مثلها. كنت أتأمل كيف تجلس بين الأطفال وتلاعبهم، كنت أرى السعادة في عينيها قبل أعينهم. وأكملت «صفاء» في رسم الصورة الجميلة التي كانت تراها في كل مرة تأتي «فريدة» إليهم. كانت شخصًا يوزع الورود؛ هذه الورود هي الحب الذي يتلألأ داخل قلبها.

كنت أراها جميلةً تمسك بباقةٍ من الورود الحمراء تفوح منها رائحة الحب. لم تنفذ السلة أبدًا من الورود، وكيف تنفذ وما زالت بذور الحب تنبت في قلبها!

تأثرت «فرح» كثيرًا بكلمات مدام «صفاء» ولكن عتابًا خفيًّا كان يتسرب إليها تجاه والدتها الراحلة؛ كيف لم يتسن لها الوقت بأن تأتي مع أمها مرة؟ كيف أخفي عليها كل هذا الجمال؟

أخاف دائمًا من تلك الأسرار التي نكتشفها بعد رحيل أصحابها أيهما نصدق يا ترى ما قالوه في حياتهم أم ما أخفوه؟

بدأت «فرح» تذهب بصفةٍ أسبوعيةٍ كما أوصتها والدتها. كانت تتمنى سرًا أن تكون والدتها بصحبتها. كانت مرشدتها في الدار مدام «صفاء» التي لم تكف عن إظهار إعجابها بفريدة الراحلة ووصيتها لابنتها من بعد رحيلها. وما زالت الأسئلة تدور في رأس «فرح»: لماذا لم تصطحبها أمها ولا مرة؟

ما المغزى يا ترى من أن تنكشف الأشياء بعد رحيلهم؟

قد يكون من الأفضل أحيانًا أن نواجه بعض تحديات الحياة بمفردنا، عندها فقط ندرك مدى قوتنا أو ضعفنا. نحن في الغالب لا ندرك أننا أقوياء إلا عندما نترك في العراء دون مساعدة، عندها فقط ننبهر بأنفسنا وبالقوة الهائلة التي نملكها دون أن نعرف.

الرسالة الثالثة

(الرحيل)

تركت لها «ثريا» الرسالة هذه المرة في شقتها قبل أن تغادر عائدةً إلى روما، حيث تعيش. اطمأنت على «فرح» خلال الفترة التي قضتها في مصر، وتابعت بنفسها تنفيذ الرسالتين الأولى والثانية. ودّعتها في المطار بكثيرٍ من الأحضان وبعض الدموع المترددة في النزول؛ ربما لم يكن الوقت الذي قضته في مصر فقط هو سبب تعلقها بثريا؛

فقد ترغب في احتضان شخص فقط لأنك تعرف كم كان قريبًا من إنسانٍ تحبه، فثمة رائحةٍ للحنين لن تستطيع مقاومتها عندما يتحدث أمامك عمّن كنت يومًا تحبه وتفتقده الآن كثيرًا!

هكذا كانت تشعر «فرح» وهي تودعها، فحتمًا ستشتاق لكل تلك القصص التي كانت تحكيها لها عن والدتها، كل تلك الذكريات التي تجمع السيدتين والتي سمعت بعضها من أمها ولكنها الآن ذات مذاقٍ جديدٍ بعد أن رحلت، مذاق المشتاق لحلاوة الأيام. مذاق الحنين الذي كان يطل من عينيها وهي تنظر إليها وتردد اسم والدتها.

لن ينتهي حنينُكِ يومًا ولن تنضب أنهار الشوق أبدًا لشخصٍ فارق الحياة... ولكنها يجب أن تستمر... حتى يحين اللقاء.

استلمت «فرح» الرسالة الثالثة واكتست علامات الدهشة وجهها عندما قرأت السطور الأولى!

انطوت صفحةٌ من حياتك... وما زال هناك الكثير من الأوراق البيضاء... ماذا تنتظري؟

هلا بدأت اليوم في كتابة كلمات جديدة في مذكرات الحياة...

لا تدعيها تنتظرك كثيرا. كوني و اثقةً أنها ستمد ذراعيها لتحتويكِ بكل ما تخفيه داخل قلبك وعقلك... قادرةٌ وقويةٌ هي الحياة على تغييروترتيب كل أور اقك القديمة، ستنسيك أشياءً وتذكّرك بأشياء، ستلهيك أحيانًا وترهقك أحيانًا أخرى؛ وبين تلك وذاك ستهديك أور اقًا جديدةً لَتكتبي... اكتبي مذكر اتِكِ مع الحياة واجعليها تستحق القراءة!

الرسالة الثالثة...

ابنتي الغالية...

«قد تكون هذه الرسالة قصيرةً ولكنها تحمل رسائل أخرى في طيّاتها. أريدك أن تسافري وتكتشفي عالمًا جديدًا بعيدًا؛ بعيدًا عن تلك الأماكن التي تلوح لك بالحزن، تلك الأماكن التي تنوي قتلك بسكين الحنين البارد كل يوم. ستبعدين ولكنك ستحملين في قلبك كل شيء. ستذهبين لشحن طاقةِ قلبك المنهك».

«سافري روما مع «ثريا»... ابدئي حياةً جديدةً هناك... اوعديني الأول انك تخلصي امتحاناتك السنة دي في الجامعة وبعدين تحصليها... هيا مجهزة لك كل حاجة...

أنا عايزاكي تشوفي دنيا جديدة... عارفة يا حبيبتي إن البيت بقى صعب وانتي لوحدك... سافري وشوفي العالم... السفر

حيعلمك حاجات كتير وهناك لسه فيه رسايل من الحياة كتيرة حتعرفيها في وقتها».

إمضاء / ماما

حتى يحين اللقاء...

انتهى الموسم الدراسي أخيرًا. وأنهت «فرح» السنة النهائية لها في الجامعة. لم تكن الأمور سهلة ولم يكن التركيز هيّنا أبدًا؛ فقد أمضت «فرح» شهور هذه السنة الأخيرة بين مرض أمها ثم حزنها على وفاتها. ولعل تلك الرسالة كانت الحافز على تخطّي كل تلك العثرات لتصل أخيرًا لما كانت تريده والدتها، فأحيانًا تفلح بضع كلماتٍ فقط أن تكون حافزك للمثابرة والتحدي.

لا تستهن أبدًا بسحر الكلمات!

واستعدت «فرح» للرحيل. استعدت لترك المنزل الذي يجمع كل ذكرياتها. فقد بكت جدران المنزل لرحيل الأم فهل تحزن اليوم على رحيل الإبنة؟ هل تشعر الأماكن بالحزن؟ هل يفتقد الجماد روحه؟ أو هل للجماد روح؟... بلى، تحتل روحك الأماكن وعندما تغيب يخفت جمال الأشياء وتتسرب الحياة من كل شيء.

لم تكن «فرح» تعرف هل كانت فعلًا تريد السفر أم لا! هل ما فرضته أمها عليها هو الصواب؟ ولكنها لا تملك إلّا وأن تستمع لكل ما في تلك الرسائل القادمة من عالم آخر بعيد... فأحيانًا تكون الحقيقة غائبةً عن عالمنا هذا وثمّة حياةٍ أخرى في عالمٍ آخر تكشف حقيقة الأمور التي قد لا نصل إليها أبدًا بإدراكنا المحدود.

لم يكن هناك الكثير من الأصدقاء في المطار لتوديع «فرح»؛ فبضعة أصدقاءٍ فقط هم المقربين منها. أمضت اليوم السابق للسفر في دار الأيتام مع الأطفال تودعهم. تعرف أنها ستشتاق إليهم، ولكنها رغبة أمها وعليها تنفيذها.

وقبل السفر كان لابد لها من هذه الزيارة الهامة. زيارة المكان الوحيد الحقيقي في هذا العالم. المكان الذي نعده مبكرًا استعدادًا للرحلة الأخيرة. إنه القبر!

تلك المساحة الساكنة من البراح والخالية من كل شيء إلا أضرحة الموتى وأسمائهم. وربما بعض الشجيرات الصغيرة المتناثرة هنا وهناك والتي تلعب دورًا زائفًا لعلها تقنعك أن الحياة يجب أن تستمر، طالما أن هذه النباتات شقت طريقها من التربة العتمة لترى الحياة.

وقفت «فرح» أمام قبر أمها وقرأت لها الفاتحة وبعض الأدعية. تماسكت جيدًا وهي تودعها حتى تراها قويةً وشجاعةً مثلما تمنت في رسائلها إليها. كان ثمة شيء قوى يمنعها من البكاء على قبر أمها. لعلها شعرت بروحها الهائمة فوق المكان. كان لحضورها الهادىء شيئًا من الوقار وكثيرًا من الهيبة. ودعت «فرح» أمها وحزمت حقائب قلبها وهرولت خارج المكان هربًا من الحنين الذي لن يرحمها بعد الآن.

مضت «فرح» في طريقها المرسوم. مضت والذكريات تحاوطها من كل جانبٍ كسياجٍ دائريٍّ عاطفيٍّ، يطوقها منذ أن وضعت قدميها خارج منزل أمها وسير افقها في كل اتجاهٍ. سيسلك معها كل الطرق؛ ستمشي وإلى جوارها ذكرياتها البعيدة.

بين السماء والأرض ترتفع الأحلام عاليًا... تصعد مع حقيبتك الحافلة بالملابس وأشيائك الهامة... ولكن يبقى ما تحمله داخل قلبك وعقلك هو أثمن مقتنياتك على الإطلاق.

وفي مدينة روما الغارقة في الجمال والفن والجنون تبدأ صفحةٌ جديدةٌ من الحياة. فهل تفلح هذه المدينة الخلّابة في تجديد الهواء داخل قلب «فرح» الفارغ؟

لم يكن يخفى على «فرح» أبدًا تعلق والدتها بالعاصمة الإيطالية الساحرة. كانت تحكي لها دومًا عنها وعن جمالها وحضارتها. وبالرغم من أنه لم يتسنّ لها زيارتها سويًّا إلّا أنها أحبتها من أمها من قبل أن تراها.

روما نقطة فاصلة في تحول حضارة العالم. كل الأساطير شاهدة على ذلك منذ أيام الرومان القديمة ومحاولة حرق حضارتها لكنها كانت دائما صامدة. تروي مبانيها قصصًا وحكاياتٍ تخلُد عبر التاريخ؛ قصصًا مليئةً بعبق جمال الأجداد والملوك و أفكار التوسع في كل الأراضي بكل الدول المجاورة. تشهد المدينة الجميلة أيضا على أجمل قصص حبٍّ عرفها العالم أخاف أن أحكي عنها فتقل قيمتها التاريخية.

في روما لكل شارعٍ حكاية، لكل حائطٍ قصةٌ، حتى وجوه الناس الكبيرة في السن هناك تحكي تاريخًا طويلًا من القصص التي غيّرت مجرى العالم وحكايات لا تقل جمالًا عن جمال الأساطير الخيالية.

روما باختصارٍ أسطورةٌ من أساطير الفن والجمال والحب.

استقبلتها «ثريا» في المطار بوابلٍ من القبلات وبكثيرٍ من

الأحضان وبرسالةٍ جديدةٍ تحملها في حقيبتها!

لم يحن بعد موعد الرسالة التالية فما زال هناك الكثير أمام «فرح» لتعرفه عن روما وعن حياتها الجديدة.

في منزلها الراقي كان الاستقبال رائعًا. وكان عليها أن تتعرف على أفراد عائلتها الجديدة.

– أهلا بيكي حبيبتي... أنا سمعت عنك كتير ومبسوطة جدًا إني شوفتك... أهلا بيكي في عيلتنا الصغيرة و أتمنى تبقي مرتاحة معانا هنا. كان هذا «عزيز» زوج طنط «ثريا»؛ رجلٌ تعدى الستين من عمره ذو وجهٍ بشوشٍ وقلبٍ لم يعترف بالسن بعد.

– إزيك يا «فرح» أنا «كارمن»... أكيد ماما حكت لك عني... أنا من زمان و أنا نفسي أتعرف عليكي... ماتتصوريش فرحت أد إيه إنك حتيجي تعيشي معانا هنا... آسفة، نسيت أعزيكي... البقاء لله حبيبتي. وهذه هي «كارمن» الإبنة الصغرى لطنط «ثريا»، تبدو رقيقة وهادئة وتحمل ملامح أمها الجميلة. فقد جمعت بين الجمال الأوروبي الملوّن مع لمحةٍ شرقيةٍ أصيلةٍ ومريحةٍ.

– تعالي بقى أوريكي أوضتك يا «فرح»... سيبوها دلوقتي ترتاح ولسه قدامنا الأيام كلها نتكلم ونحكي كل حاجة. قالت «ثريا» وهي تعاتبهم على محاوطتهم لفرح المتعبة من السفر وسؤالها عن مصر وأحوالها ولن تنتهي المواضيع أبدًا، لذا كان عليها أن تختطفها من بين أيديهم وأسئلتهم المتعجلة.

دخلت «فرح» غرفتها فهي بالفعل متعبةٌ؛ لم تكن ساعات السفر ومشقة المطارات وزحام المدينة فقط هو السبب؛ فثمة ضجيجٍ

يعلو داخل عقلها وقلبها منذ أن تركت الوطن، ولا تقوى على إسكاته!

أحيانا لا يفلح كل البشر ولا تفلح أي الأشياء في ملء فراغ قلبك وإسكات ضجيج عقلك!

ارتمت على سريرها متعبةً وتأملت سقف غرفتها الملون. كانت النقوش والرسومات الصغيرة تزين أسقف المنزل الأنيق. يغلب على المنزل الطابع الروماني القديم بلمحةٍ عصريةٍ مريحةٍ. كانت أمها الراحلة تحكي لها كثيرًا عن حبها للطراز الإيطالي المميز، والذي هو مزيجٌ من الإغريقي والروماني مثلما هي المعابد والمتاحف الرومانية في مدينة روما القديمة. كان ذلك الطراز يميز كل منازل الأثرياء والعائلات النبيلة، وبعد عصر النهضة ازدهرت إيطاليا اقتصاديًّا ولم تقتصر بيوت الأغنياء فقط على هذا الجمال وهذه الأبهة. عشقت «فريدة» و«ثريا» ذلك الفن الراقي، ولعل ذلك كان سببًا في تمسكهما بدراسة اللغة الإيطالية و إتقانها. كل أرجاء منزل «ثريا» يذكرها بأمها.

كل تفصيلةٍ من تفاصيل المنزل الجميلة كانت تداعب خلية من خلايا عقلها وتنشط ذاكرة القلب المنهك من الحنين.

مرت الأيام الأولى بين شغف استكشاف الحياة الجديدة وبين رغبةٍ دفينةٍ للرجوع لأحضان ذكرياتها في الوطن.

لم تتوان «كارمن» عن مساعدة «فرح» في التعرف على معالم المدينة الجميلة بكل خباياها وأسرارها. كانت تلك النزهات اليومية كافية جدًا لإذابة الجليد بينهما. وقد نجحت «فرح» سريعًا في التأقلم على الحياة الجديدة بل وقد مضى وقتًا لا بأس به قبل أن تتذكر أن لديها مهمة جديدة.

الرسالة الرابعة

(تحقيق الحلم)

الرسالة الرابعة...

ابنتي الغالية...

«عندما تتسلمين هذه الرسالة يكون مر على رحيلي ستة أشهر... هل استجمعت قوتك الآن يا حبيبتي؟ أعرف أنني تركت ابنةً قويةً... أعرف أنك تستطيعين بمفردك أن تكتشفي الحياة... فما زال هناك الكثير داخلك لم تعرفيه بعد... ستكون المرحلة القادمة مهمة في حياتك... انتبهي جيدًا وانتهزي كل الفرص المتاحة... فكري جيدًا قبل أن توافقي على اتخاذ قرارٍ يخص مستقبلك... كم كنت أتمنى أن أرافقك في كل تلك الخطوات القادمة... ولكنني لم أذهب بعيدًا... أنا أراقبك من مكانٍ أكثر هدوءًا وأكثر أمانا!

كنت أتساءل دائما؛ هل فعلًا يراقبنا أحباؤنا الذين رحلوا؟ هل فعلًا يمكنهم أن يشعروا بنا؟ هل مجرد إحساسنا بأن هذا يحدث يريحنا ولو جزئيا؟ ليتنا نعرف... أو ليتنا لا نعرف!

«ثريا» حتساعدك تلاقي شغل... أنا قلتلها على حلمك زمان وانتي صغيرة... فاكراه؟

أنا عارفة إنه مش سهل تحققي كل أحلامك مرة واحدة... أو جايز يكون حلمك اتغير مع الوقت. علشان كده في الرسالة دي انتي اللي حتختاري... وانا عارفة إنك حتختاري صح!»

إمضاء / ماما

حتى يحين اللقاء...

وفي صباح يوم ممطرٍ في العاصمة الإيطالية ذهبت «ثريا» مع «فرح» إلى مقابلة عمل مهمة. تعمّدت أن تتكتم تفاصيلها حتى لا تفسد المفاجأة.

تعمل «ثريا» في وكالة الأخبار الإيطالية الشهيرة (Adnkronos) (أدوكرونوس). وقد استطاعت أن تصنع لنفسها مكانة مميزة بين زملائها. حكت «ثريا» كم التحديات التي قابلتها في بداية حياتها كونها مصرية. لم تكن أبدًا تكفي المهارة و إتقان اللغة لتصل لهذه الوكالة الكبيرة. لا نستطيع أن ننكر مساعدة زوجها بعلاقاته القوية في بداية حياتهما. زوجها رجل أعمال مصري من جذورٍ إيطالية. تعرفت عليه أثناء زيارته لقسم اللغة الإيطالية في الجامعة عندما كانت طالبة هي و«فريدة». تعرف «فرح» قصة حبهما جيدًا من حكايات أمها والتي سبقت قصة حب أمها لوالدها. سيأتي وقت كل تلك القصص لنعرفها عن قرب.

فلكل حكاية مغزى ولكل قصة حكمة يكتبها لنا القدر ويحكيها لنا الزمن... وعلينا فقط أن ننصت جيدًا!

وفي مقر عمل «ثريا» كانوا على موعد مع رئيسها في العمل. قابلها بكل الود وكل الترحيب. أعطته «ثريا» فكرة مسبقة عنها وعن شغفها

بالعمل كصحفية. كان عليه أن يجري بعض الاختبارات لها حتى يقبلها في الوظيفة الكبيرة والتي يحلم بها الكثيرون. لم تتمالك «فرح» نفسها من السعادة عندما عرفت هذه المفاجأة. كانت تعرف والدتها موهبة ابنتها الخفية في الكتابة. كانت تحثها كثيرًا على كتابة مذكراتها مثلما كانت تفعل الأم. طلبت منها توثيق كل مشاعرها وخواطرها في المذكرات اليومية. وقد رأت «فريدة» في ابنتها إبداعًا رائعًا في كتابة القصص القصيرة، كانت لديها القدرة على تحويل أحاسيسها إلى كلماتٍ تخترق القلب قبل العقل. كانت ترى فيها كل المؤهلات لتكون كاتبةً مشهورةً، كانت تحلم معها وبها. ربما لم يمهلها الوقت لتحقق هي حلمها في أن تكون كاتبةً كبيرةً؛ ولكن ما زال الحلم مستمرًا طالما ابنتها تحمل نفس جينات حبها للكتابة.

أحيانًا تحلم الأم بأن تكون ابنتها تلك الصورة التي لم تستطع هي إكمالها... وحين يتحقق الحلم يكون أشبه بالمعجزة التي جمعت بين حلمين وقلبين.

ومضت فترة لا بأس بها تحت التمرين. تعلمت فيها «فرح» الكثير. إزداد شغفها كل يومٍ بالتحديات الجديدة في العمل. كانت تحاول أن تثبت لنفسها أنها تستطيع أن تصل إلى ما تريده وما كانت تحلم به. امتلكها شعورٌ كبيرٌ بالبهجة لا تعرف مصدره. لم تستطع أن تحدد بالضبط.

كان عليها أن تنتظر قليلًا لتعرف كل شيء.

مضى وقتٌ طويلٌ وتأقلمت «فرح» على كل شيء. اندمجت في كل تفاصيل حياتها الجديدة والمشغولة دائمًا بين العمل وبين عائلتها الجديدة... ولكن ألم تشتاق إلى رسالةٍ جديدةٍ من رسائل أمها من

العالم الآخر؟

انشغلت «فرح» ونسيتْ نصيحة أمها لها في الرسالة الأولى. لم تبحث عن الحب بعد! هل ينسى الإنسان نفسه عندما يدور في ساقية الحياة؟ هل يجب أن ننغمس في العمل وننسى أن الحياة ليست بهذه القسوة حتى نغفل عن جمالها؟

لا تتحجج بالوقت وحاجتك للمال، فلن يزيد الوقت ولن تكف يومًا عن الشراء، ولكن الحياة لن تنتظرك كثيرًا.

فمن يريد شيئًا بشدّة يستطيع أن يحققه بشدّة.

انتظرت كثيرًا «ثريا» قبل أن تعطي لها الرسالة القادمة. كان المطلوب منها ألا تعطيها هذه الرسالة إلا بعد أن تستقر حياة «فرح». لم تكن «ثريا» تعرف حقًا ما الذي تعنيه صديقتها من ترتيب مواعيد الرسائل. لم تكن تعرف كيف كان لها كل هذه البصيرة لترتب الأوراق جيدًا هكذا لابنتها. وتساءلت هل يا ترى لو كانت على قيد الحياة كانت ستجري الأشياء مثلما تريدها تماما؟

ومنذ متى والحياة تأتي بما تشتهي الأنفس؟

وفي إحدى ليالي روما الباردة، كانت العائلة مجتمعةً في غرفة الجلوس؛ كلٌّ منشغلٌ بأموره. كان صوت الأمطار عاليًا في الخارج. كانت حبات المطر ترتطم بزجاج الشرفات بقوةٍ. الطبيعة كانت تعلن عن غضبها بصوت الرعد شديد اللهجة ووهج البرق بحضوره القوي هذه الليلة. حتى دق جرس الباب!

من هذا يا ترى الذي نجا من كل فوضى الطبيعة وصخبها؟ تبادلوا جميعا النظرات المتعجبة وبدت الدهشة تكسو الوجوه.

وتطوعت «كارمن» بفتح الباب والإجابة عن تساؤلاتهم سريعًا.

وكانت المفاجأة التي لم يتوقعها أحد... إنه «عمر»!

إنه الإبن الأكبر والوحيد لثريا. كان يدرس الإخراج السينمائي في جامعة نيويورك بأمريكا. تلك هي زيارته الأولى منذ أربع سنوات: هي مدة غيابه عن منزل العائلة. ولكنه كان ينوي مفاجأتهم بوصوله دون أن يخطرهم، ففاجأته العاصفة وأخرته خمسة أيامٍ كاملةٍ.

– حبيبي! صرخت «كارمن» عندما رأت أخاها بعد أن قفزت عاليًا وتعلقت برقبته كالطفلة الصغيرة كما كانت تفعل دائمًا. لم تعبأ بكل البلل الذي أصابها من معطفه الغارق بمياه المطر المثلجة، فأشواقها الحارة جدًا لم تشعرها بكل هذه البرودة.

وبعد السلامات والقبلات والأحضان، حان وقت التعارف. فلم يعرفه أحد بعد بفرح. انشغل الجميع بمجيئه ونسوا أنه يراها لأول مرة. لم يتسن الوقت لوالدته أن تحكي له عنها في محادثاتهم الأخيرة قبل أن يفاجأهم جميعا بحضوره. كانت الدراسة تمنعه من الحضور و انشغل بالعمل هناك بجانب الدراسة.

– «عمر» نسيت أعرفك بفرح. «فرح» بنت طنط «فريدة» صديقة عمري الله يرحمها.

– أهلا يا «فرح» إزيك؟... البقاء لله... أنا آسف بس الظاهر ماما بقت بتنسى كتير الفترة الأخيرة... إزاى تنسي يا «ثريا» تقوليلي عن «فرح» وعن وفاة طنط «فريدة»؟ قال «عمر» مستنكرا ما حدث وساخرا بضحكته العفوية وهو يداعب أمه باسمها مباشرةً دون ألقاب!

ضحك الجميع على خفة دم «عمر» التي افتقدوها جميعًا. كانت ليلةٌ طويلةٌ تلك التي أتت بعمر إليهم وكان الوقت متأخرًا بما يكفي.

الرسالة الخامسة

(الحرية)

هدأت العاصفة واستقر الجو في العاصمة الإيطالية بعد أن انتصف شهر أكتوبر. مر أسبوعان على وصول «عمر»؛ قضى معظمهما في المنزل. فكم كان يشتاق هذه الأجواء العائلية الدافئة في شتاءاته الكثيرة السابقة والتي قضاها وحيدًا في صقيع الليالي. أما «فرح» فقد أضفت جوًا من البهجة والألفة بين الجميع؛ فبرغم خجلها من وجود «عمر» في المنزل إلا إنه كان يتعمد ألا يشعرها بغربةٍ بمجيئه. كان هو أيضًا مستغربًا وجودها في البداية ولكنه عرف القصة كاملة من أمه. حكت له حكايات الرسائل وحكت له قصة مرض «فريدة» وكل شيء.

أعجبته كثيرًا فكرة الرسائل. كان يسمع من أمه دائما قصة شبابها التي لم تخلُ أبدًا من وجود «فريدة» في كل حكايات وذكريات زمان. ولكنه أول مرة يعرف كم كانت قوية!

أوليست تلك شجاعةٌ أن تواجه مرضًا قاتلًا كالسرطان بمفردها؟ أوليست تلك قوة التي تحارب بها دون أن تخشى ما قد يفعله بها المرض؟ أوليس هذا إيمانًا قويًا ذلك الذي واجهت به محنتها؟

فمَن يحدد المصير؟

مَن يرسم القدر؟

من يهرب منه؟

أوليس كل ذلك محددًا منذ الولادة؟

وفي جلسة صفا مسائية على سريره الذي اشتاق إليه، جلست «ثريا» بجوار «عمر» لتحكي له.

– أنا أول ما عرفت بمرض «فريدة» إنهرت تماما وحسيت بالعجز إني مش قادرة أساعدها و أنا بعيدة عنها... وكمان ما كنتش قادرة أستوعب إنها ترفض أي علاج... بس في نفس الوقت كنت مبهورة بشجاعتها وقوتها. كأنّ ربنا نزل في قلبها قوة جبل بعد ما تعبت. عمري ما حسيت إنها يائسة أو متضايقة. كانت راضية بشكل غريب... كانت راضية وعارفة إن وقتها في الحياة بقى قصير... قالت لي جملة مش قادرة أنساها:

«أصعب حاجة لما تشوف إنسان بتحبه بيتعذب ويتوجع و انت مش عارف تعمله حاجة... أنا اقدر أتحمل اللي أنا فيه... بس مش حاقدر أتحمل أشوف «فرح» وهيا بتتعذب علشاني».

وسمعت كلامها وسكت... مقدرتش أقولها حاجة... قضت وقت طويل في التحضير لكل حاجة علشان ترتب الرسائل، كل واحدة في ميعادها. كنت بساعدها في كل حاجة من غير ما «فرح» تحس.

قالت لي:

«أنا مش عايزة أسيب «فرح» لوحدها... عايزة أفضل جنبها على طول... عايزاها تحس بكل كلمة ونصيحة كنت بقولهالها و أنا موجودة... كل خطوة في حياتها عايزاها تكون مطمنة... وعلشان كده فكرت في كتابة الرسايل دي... بس انتي الوحيدة اللي حتساعديني في

تحقيق أمنيتي الأخيرة دي».

قالت لي أن فكرة الرسائل هذه جاءتها من فيلم أمريكي شاهدته. الفيلم كان يحكي قصة زوجٍ توفي في ريعان شبابه بسبب ورم في المخ. كان يحب زوجته حبًا جنونيًا ولما عرف بقرب انتهاء أيامه في رحلة الحياة قرر كتابة الرسائل لزوجته. كان يريد أن يساعدها أن تمضي بقية حياتها بدونه. كان يريدها أن تكون قوية وألا يكسرها غيابه. وطوال الفيلم لم تتخلص زوجته من حنينها إليه واشتياقها له، ولكنها في النهاية استطاعت أن تجد طريقها في هذه الحياة.

«ثمة حكمةٍ في كل ما يجري في هذه الحياة... ولكننا دائما ما نقف في العراء عندما يصدمنا الفراق وتنزف قلوبنا حنينا لأحدهم... ثم نكتشف في دهاليز أرواحنا كل ما يبهرنا بعد الرحيل».

لم يستطع «عمر» إخفاء إعجابه بكل ما تحكيه له والدته. وحاول أن يداعب أمه وأن يعرف منها محتوى الرسائل القادمة إلا أنها رفضت تمامًا؛ فما أقسمت أن تبقيه سرًا سيبقى سرًا حتى يحين وقته.

صباح يوم الأحد الهادئ ومع نسمات الشتاء الذي لم يبدأ بعد تستيقظ «فرح» متأخرةً. لم يكن لديها خططًا اليوم، ولكنها لا تعرف أن الخطة اليوم مرسومةً لها مسبقًا!

فبعد الإفطار مع العائلة استأذنها «عمر» لتقبل دعوته على فنجان قهوة في أحد كافيهات روما الشهيرة. لم تتردد في قبول الدعوة، فقد مروقتًا كافيًا بينهما للتعارف.

وفي المقهى الراقي والذي يطل على الكولوسيوم الشهير مضى

الوقت سريعًا. لم تتوقف «فرح» عن الضحك مع «عمر»، كانت لخفة دمه جاذبيةٌ لا تقاوَم. لم تضحك هكذا منذ أن رحلت أمها. كانت بحاجة لهذه الجرعة المكثفة من البهجة. حكى لها عن قصة ولعه بالإخراج والسينما عموما. لم يكف عن ذكر مدارس الإخراج المختلفة، ذكر أسماء وحكايات عن الممثلين لم تسمع بها من قبل. كان يذهب بها لعالم لم تعرفه من قبل. حكى لها عن أفلام «الويسترن إسباجيتي» وكم هو يعشقها.

ضحكت «فرح» في البداية واعتقدت أنه يداعبها و أنه قد اختلق هذا المصطلح لأنه في إيطاليا؛ بلد المكرونة!

ولكنه كان محقا!

فتلك أفلامٌ ظهرت في ستينات القرن العشرين. وسميت بهذا الإسم لأن من قام بإخراجها وبإنتاجها أوروبيون وبالأخص طلاينة عاشوا في أمريكا. كان من أشهرها فيلم «من أجل حفنة دولارات» وفيلم كلينت إيستوود الشهير «الطيب والشرس والقبيح». كان يحلم بأن يحقق في عالم السينما الحديثة أمرًا مشابهًا يحدِث نقلةً فنيةً.

حكى لها كيف كان طفلًا مهووسًا بكل ما يشاهده داخل ذلك الصندوق الخشبي الذي تتدلى منه الأسلاك في منزلهم. كان مبهورًا بكل ما يقدمه هذا العالم المثير. كان يدخر مالًا من مصروفه الشهري لكي يذهب إلى السينما. حكى لها كيف كان يشعر بالمتعة وهو يندس داخل عتمة قاعة السينما حيث يعيش حياةً موازيةً لحياته الحقيقية. عالم الخيال مبهرًا ومثيرًا لطفلٍ في سنّه. كان يذهب إلى السينما ويعود ويحكي كل ما شاهده على الشاشة العملاقة. كان يشعر أن مفعول السحر يستمر لأيامٍ عديدةٍ بعد مشاهدة الفيلم...

كنت أحكي لهم بلا توقف عن ذلك الفيلم وهو يريني الحياة الأخرى التي لا أعيشها، المدن والنساء الر ائعات والرجال الوسيمين، الشوارع، والقصور وقصص الحب الأسطورية، البطولات التاريخية والأبطال الخارقين. فالسينما ليست حياةً متخيَّلةً، إنها فقط حياةٌ مجهولةٌ بالنسبة للبعض.

لم ترَأمي شغفًا مثل ذلك الذي كان يطل من عيني حينما أتحدث. كانت تنبهر بعقلي وتشجعني كثيرًا على الاستمرار. قلت لها أن بعض الأفلام الجيدة قادرة على تغيير التوجهات الإنسانية في العالم بأسره، فتلك القصص التي تدافع عن قضايا الإنسان، مثل التي تقف مع الفقراء وضحايا الحروب والمشردين، تلك التي تتحدث عن قضايا البيئة واللاجئين وضحايا التمييز، قادرةٌ على إحداث تحولٍ كبيرٍ في أفكار مجتمعٍ بأسره.

فكرةٌ واحدةٌ تولد لتصنع فرقًا كبيرًا دون أن تقصد، فكرةٌ واحدةٌ قد تضيء الطريق للعالم... هكذا هي السينما.

كبر الولد وكبرت معه أحلامه. كان هدفه أن يصنع اختلافًا في عالم السينما. لم يخفتْ حُلمه أبدًا حتى انتهى من دراسة الإخراج وسيبدأ في تنفيذ الحلم قريبًا!

عالم السينما الساحر دائمًا؛ ذلك العالم الذي يرسم لك خيالًا شاسعًا من شخصياتٍ وقصصًا... تحلق معها بعيدًا... تتمنى أن تكون أنت البطل أحيانًا، وتشفق عليه أحيانًا أخرى... قد تتمنى موته واختفائه أو تتمنى أن يحيا للأبد... ولكن شئت أم أبيت... فحياة البطل دائمًا لعبة في يد مؤلف العمل ومخرجه... ولكن ماذا عن حياتك أنت من يتحكم فيها؟

كان حديثه غنيًا مثل شخصيته. كان ثريًّا بثقافته العالية وبحديثه الذي يعرف كيف يجذبك إليه مجرد أن يبدأ في الكلام. ليس سهلًا أبدًا أن تفلت شخصيةٌ كهذه من حبك.

حكت له هي بدورها عن حياتها السابقة وعن رحيل والدتها المفاجيء والذي كاد يقضي عليها لولا تلك الرسائل. حكت له عن تعلقها الكبير بأمها. قالت له أن أمها كانت تمثل لها العالم وما فيه. فقد تفتحت عيناها على وجودها. كان لها أبٌ عظيمٌ ولكن حياته أيضا كانت قصيرةً تمامًا مثل أمِّها. سكتت قليلًا وكأنها تذكرت شيئًا... ثم أردفت قائلةً:

– ليه دايما الناس اللي بنحبهم أوي بيسيبونا ويمشوا بسرعة؟... ليه كل حاجة حلوة عمرها قصير؟ ليه الحياة نفسها قصيرة مهما طالت؟ ساعات بحس إن الوقت كله اللي في الدنيا مش كفاية علشان نلحق نعمل كل اللي احنا عايزينه، مش كفاية علشان نلحق نقول للناس اللي احنا بنحبهم أد إيه إحنا بنحبهم وإن الحياة من غيرهم موجعة!

رد عليها «عمر» قائلًا:

– بالعكس، أنا بحس إن احنا عندنا وقت طويل جدًا بس احنا اللي بنضيعه... أو يمكن مابنعرفش نستغله صح... بنسيب حاجات كتير تعطلنا... يعني بنضيع وقتنا في الزعل على حاجة ضاعت مننا... على قصة حب فشلت... على وظيفة كان نفسنا فيها... والكسل زي الوحش بياكل في وقتنا كل يوم من غير ما نحس... حتى الشغل ممكن ياكل عمرنا كله لو ضيعنا فيه كل الوقت على حساب راحتنا وصحتنا... الفكرة كلها في تنظيم الوقت... نرتب أوراقنا الأول قبل ما

نتحرك... وكل حاجة حتيجي في وقتها حسب الخطة المرسومة.

أعجبتها طريقة تفكيره كثيرًا. ربما يجب عليها ترتيب الأوراق كما يقول؛ ولكن أليست مرتبةً الآن بما يكفي؟ فالرسائل التي تصلها تدلُها على الطريق.

– لأ... الرسايل دي مش كفاية أبدًا يا «فرح». قال «عمر».

– إزاي؟ أنا بحاول أنفذ كل اللي فيها علشان ماما. ومبسوطة جدًا وحاسة بيها على طول معايا. ردت «فرح».

– بس فيه حاجات صعبة حتقابلك في الطريق... والرسايل مش حتحل كل المشاكل. لازم تشوفي اللي بتعمليه ده عايزاه فعلًا ولا بتعمليه وخلاص؟ لازم تحددي هدفك في الحياة... لازم يكون دايما عندك حلم... وكل ما يتحقق حلم تحلمي من أول وجديد... الحياة من غير أحلام كئيبة ومملة. قال «عمر».

تعجبتْ «فرح» من كلماته والتي تلمح بأنها لا تفكر قبل أن تنفذ المكتوب في الرسائل. هل هذا ما يقصده فعلا؟

– أنا كل حاجة بعملها علشان أنا فعلًا عايزة أعملها... وعلشان دي وصية ماما... ولو كانت هيا عايشة كنا حنعملها سوا. ردت «فرح» عليه وقد اكتسى صوتها بالحزن الغارق بالحنين.

– أنا آسف... أنا ما اقصدش أقول كده. أنا كل اللي كنت بحاول أوصولهولِك إنك تحاولي تدوري على اللي إنتي عايزاه في كل الرسايل اللي فاتت واللي جاية كمان... أكيد طنط «فريدة» كانت تقصد إنك تخلي بالك من المغزى وراهم. قال «عمر» محاولًا تهدئتها بعد أن شعر بتوترها الواضح.

ولما تأخر الوقت وقبل أن تطلب الرحيل وضع «عمر» أمامها ظرفًا مغلقًا.

تسمرت عيناها على الظرف المغلق؛ إنه نفس شكل الظرف الذي تتسلمه منذ رحيل أمها!

ماذا يفعل معه يا ترى؟ هل هذه هي الرسالة الجديدة؟

– ما تقلقيش... ماما سمحتلي أخد منها الرسالة الجديدة واسلمهالك بنفسي... طبعا إذا كان مايضايقكيش! قال «عمر» ليزيل عنها كل تلك الدهشة.

– لا لا أبدًا... بس أنا بحب أقرأ الرسالة لوحدي... يعني ليا طقوس كده و أنا بقرأ كلام ماما. بحسها هدية حلوة منها كل شوية وهيا بعيدة أوي كده. أنا مش عارفة لما الرسايل دي تخلص هاعمل إيه؟ سألته «فرح».

– ما تخافيش أنا متهيألي طنط «فريدة» الله يرحمها ماسبتش حاجة إلا وعملت حسابها... تعرفي أنا معجب جدًا بيها مع إني ماشفتهاش... كلام ماما لوحده عنها كفاية. قال «عمر».

– أنا متشكرة أوي يا «عمر» أولا على الكابتشينو... وثانيا على اليوم الجميل ده... وكمان علشان الرسالة دي. ردت «فرح».

– شكرًا إيه؟... احنا مش هنتغدى؟ أنا ميت من الجوع... إنتي مش شامة ريحة البيتزا والمكرونة اللي هنا ولا إيه؟ معقول مش جعانة بعد ما حكيت لك عن أفلام «الإسباجيتي»! قال «عمر» وهو يضحك.

ضحكت «فرح» وأدركت أنه لا مفر من الإنتظار. فعندما يشعر

«عمر» بالجوع فلن يصبر حتى يعود للمنزل. واضطرت أن تطلب معه البيتزا التي لم يكف عن الإعلان عن جمالها وروعتها منذ أن رآها في قائمة الطعام، فكل المأكولات الإيطالية كان يفتقدها كثيرًا منذ أن رحل عن روما.

مرت الدقائق الأخيرة عليها ببطءٍ كانت تريد أن تجري للمنزل حتى تنفرد برسالتها، فتلك الدقائق القليلة التي تقضيها مع الرسالة الجديدة ترد إليها روحها من جديد.

كانت تشم رائحة الحنين في كل كلمة... تقرأ الكلمات بصوت أمها... كانت تستدعي صوتها في رأسها... كانت تستحضر ضحكاتها وسكناتها وهمساتها... يا الله كم أشتاقك يا أمي؟

كان يصيبني حزن غير مبرر بعد أن استمع لرسائلها الصوتية القصيرة المرسلة لي عبر الهاتف؟ كان صوتها برغم حنيني إليه، إلا أنه كان يحرض الحزن دائما عليّ. كم أحتاج صوتها لأعيش. أحتاجه أكثر من مرة في اليوم. أحتاجه قبل أو بعد أن يهجم الحزن عليّ.

الرسالة الخامسة...

حبيبتي الغالية...

أتمنى أن تكوني قد تعافيتِ قليلًا من غيابي عنك... ولكن إياكِ وأن تتعافي تمامًا... فأنا أنت وأنت أنا... أنا الروح التي تحيا بداخلك... أستطيع الشعور بك دائمًا... لم يتغير شيء... غبت بجسدي فقط ولكن روحي ما زالت تحرسك يا صغيرتي... فلا تخافي أبدا. لعلك تريدين الآن معرفة ما سأطلبه منك في هذه الرسالة... حسنا، فلن أطيل عليك كثيرًا.

هل تتذكرين شغفك بالموسيقى؟ هل تتذكرين كم حفلةٍ موسيقيةٍ حضرنا معًا؟ ما زلت أتذكر حبك للكمان. برغم أنني كنت أتعجب من حبك لصوت الكمان الحزين إلا أنني كنت أعشق صوته أيضا. كنت أحسبك تميلين أكثر لصوت البيانو العميق، ولكن يبدو أن الشجن الذي يصدره الكمان يستهويكِ كما كان يستهويني دائما.

«المشاعر التي تتحرك بالموسيقى والقلب الذي يتمايل فرحًا وحزنًا معها لن تهزمه الحياة أبدًا... الموسيقى غذاء الروح... الموسيقى تعبر عما لا يمكنك قوله ولا تستطيع السكوت عنه».

«الحياة موسيقى ألحانها البشر».

«حققي حلمك واتعلمي عزف الكمانجا... إنتي أجلتي الحلم ده كذا مرة... المرة دي عندك فرصة أحسن... روما بلد كل الفنون... دوري على معهد لتعليم الموسيقى و«ثريا» أكيد حتساعدك... يمكن انتي مستغربة ليه أنا بطلب منك الطلب ده... مش بس علشان ده كان حلمك... لأ علشان الموسيقى هي الحرية... هي الرقى والنقاء... مافيش حاجة بتلمسها الموسيقى إلّا وبتكون أكثر نقاءً وأكثر رقى... إبعدي عن كل سخافات العالم... اتعلمي واعزفي وخللي السما تسمع مزيكتك... أنا كمان مستنية اسمعها»

إمضاء / ماما

حتى يحين اللقاء...

استلقت «فرح» على سريرها وقد أعياها التعب. لم يكن الطريق كله ممهدًا كما يبدو. ربما عليها أن تفكر قليلًا فيما قاله لها «عمر»

هذا الصباح. هل حقًا هي تريد ذلك؟ أم فقط هي تتبع خطوات أمها؟ كانت تقول لوالدتها كثيرًا عن شغفها بتعلم الموسيقى وخاصةً العزف على الكمان، ولكن الأمر اختلف الآن. لم أعد أشعر بذلك الشغف. ربما لم تعد تستهويني الموسيقى. كنت صغيرةً بالأمس. كنت كل يومٍ أستيقظ بحلمٍ جديدٍ. لم يكن مهمًّا أن أحقق الحلم أم لا. المهم كان هو أن أظل أحلم؛ هكذا كانت تقول لي أمي دائمًا. والآن بعد أن رحلت لماذا يجب أن أستمر في الحلم؟ كان رحيلها في حد ذاته إفاقةً كاملةً من كل الأحلام. لم تعد تستهويني نفس الأشياء. هل تغيرت أنا أم فقط هي الحياة؟

هل عندما نكبر تضيق علينا الحياة؟

قضت ليلتها تفكر وتفكر حتى غلبها النوم. غفت «فرح» وظلت الأحلام تدور في عقلها.

وفي صباح اليوم التالي استيقظتْ وارتدتْ فستانًا أبيضًا جديدًا. ذهبت إلى نافورة «تريفي» المشهورة في وسط العاصمة الإيطالية. كان الجو ممطرًا ولكنّ الشمس كان تطل باستحياء خلف السحب الكثيفة. تلك النافورة التي يقال أنها تحقق الأماني؛ فقط عليك أن ترمي العملات المعدنية وتتمنى ما تريد. تلك النافورة التي يعني اسمها «عذراء» باللغة الإيطالية.

وطبقا للحضارة الرومانية القديمة تقول الأساطير أن الفتيات العذارى كن يأتين للنبع الذي كان موجودًا قبل بناء النافورة أملًا في الزواج. وتأتيه السيدات أيضا اللواتي لم يوهبن نعمة الإنجاب على أمل أن تتحقق أمنياتهن بالأمومة. وكما تقول الأسطورة القديمة فالنافورة ترمز للخصوبة والنقاء والجمال.

كانت «فرح» تحمل معها حقيبةً كبيرةً وثقيلةً. لم تنتبه لهذا الحِمل طوال الطريق. وهناك وأمام النافورة فتحت الحقيبة لتبحث عن أي عملات معدنية لترميها، ولكنها لم تجد إلا رسائل أمها وقد تغير شكلهم. تحولت الأوراق إلى اللون الأصفروكأن وقتًا طويلًا قد مرعليهم فلوثهم الغبار. كيف حدث هذا وهي تحتفظ بهم جميعا في صندوق في خز انتها؟ هل مرّ الوقت و أنا لا أدري؟

قلّبت بفزعٍ بين كل الرسائل لترى ماذا حل بهم. فوجدت في كل ظرف عملة معدنية!

من أين جاءت هذه العملات المعدنية؟ أكانت هنا من قبل و أنا لم أنتبه لها؟ وأخذت تلملم العملات جميعها من كل الرسائل لترميهم. أصبح لديها الآن حفنة من العملات التي لا بأس بها.

قالت لنفسها:

– حسنًا... ماذا سأتمنى الآن؟

فسمعت من خلفها صوتًا يقول:

– لا تحاولي أن تخدعي النافورة... افتحي قلبك وارمِ كل أمنياتك و أنتِ ترمين النقود... لا تتركي شيئًا عالقًا به... لا تخشي شيئا فكل الأمنيات يمكنها أن تتحقق... فقط لو أطلقتِ سراحها.

التفتت لترى مَن يحدثها... ولكنّ أحدًا لم يكن هناك!

ثم دق الموبايل عاليًا بنغمة المنبه... واستيقظت «فرح»!

كان حلمًا!

أحيانًا يكون الحلم أصدق كثيرًا من الو اقع الذي نعيشه...

التفت جيدًا لحلمك فثمّة رسالةٍ غامضةٍ يحملها لك وعليك فك شفرتها.

وبعد ساعاتِ العمل ذهبتْ «فرح» إلى معهد «تريفي» لتعليم الموسيقى. لقد قررت أخيرًا أن تبدأ في تنفيذ الرسالة الأخيرة لوالدتها. مرّ أسبوعًا كاملًا قبل أن تأخذ قرارها هذا.

تواعدت مع «عمر» على الذهاب هناك سويًّا. فلم يُرِد أن يتركها تذهب بمفردها في يومها الأول. وحين أنهت إجراءات التسجيل للالتحاق بالمعهد كان عليها أن تذهب معه لشراء آلة كمان خاصة بها، ولأنه كان يهوى العزف أيام المدرسة على الأورج فهو يعرف متجرًا جيدًا لبيع الآلات الموسيقية بسعرٍ مناسبٍ.

طالت جولتهما في الطريق حتى متجر الآلات الموسيقية. الحديث لا ينتهي أبدًا بينهما. فالحكايات عديدةٌ وما زال هناك الكثير الذي لا يعرفونه عن بعضهما.

كانت تحب الحديث معه كثيرًا. لم تكن تعرف لماذا يبتهج قلبها عندما يتحدث! لماذا تحب أن تضحك على كلامه ودعاباته الشقية! لماذا امتلأ قلبها بالفرحة عندما عاد من سفره؟ وفجأة أسكتت عقلها وخجلت من تفكيرها فيه بهذا الشكل.

لا لن أسمح لعقلي أن يفكر به كثيرًا. لن أسمح لقلبي أن يميل. ماذا لو لم يكن يشعر هو مثلي؟

نعم... هو بمثابة أخي... وسيظل كذلك!

هكذا أقنعت نفسها بالسكوت... ولكن هل سيسكت هو؟

مرت الأيام والشهور سريعًا. مضى وقتٌ طويلٌ منذ الرسالة

الأخيرة. لم تعد «فرح» تسأل كثيرًا عن الرسائل المتبقية لها. انشغلت داخل دائرة الحياة التي تدور بلا توقفٍ ولا ندرك أن الوقت يمضي كما تمضي معه أعمارنا.

لم تعد «فرح» تسكن مع طنط «ثريا» والعائلة. كان خلافًا شديدًا ذلك الذي حدث بينهم جميعا عندما رفضت «ثريا» أن تسمح لفرح أن تترك المنزل. حاولت مرارًا وتكرارًا أن تعرف منها سبب قرارها هذا. فثمّة شيء لابد وإن حدث جعلها تريد الرحيل هكذا! ولكن «فرح» أقسمت لهم أنها تشعر بالفعل بمنتهى السعادة بينهم ولكنها فقط أرادت أن تستقل بحياتها وأن تعتمد على نفسها، وخاصة بعد أن مرت سنةٌ كاملةٌ على رحيل أمها.

وبدأ تعلم الموسيقى يؤتي ثمارَه. كانت «فرح» تطير بلا أجنحةٍ كل مرةٍ وهي تعزف على الكمان. كانت تشعر بأنها داخل فقاعةٍ كبيرةٍ تفصلها عن كل العالم. فقاعةٌ نقيةٌ، شفافةٌ تبعدها عن كل شيء. لم تتوقف عن التفكير لحظة واحدة في أمها. كانت سعيدة بهذا الحلم الذي تحقق أخيرا. كانت سعيدة بأنها استطاعت عمل كل ما تحبه فعلًا؛ فقد عشقتْ الكتابة والآن هي تعمل في أكبر وكالة أخبار في روما. وحلمت بالموسيقى وها هو الكمان يغرّد على كتفها.

انشغلت بالحياة ولكن هل ما زالت منتبهةً للعلامات!

تعرفت «فرح» في معهد الموسيقى على «آدم»: شابٍّ إيطاليّ من أصولٍ تركيةٍ، يعزف معها الكمان. كانت تقضي معه وقتًا طويلًا بين دروس الكمان وبين البروفات المكثفة والتي تسبق الحفل الكبير الذي يقيمه المعهد الشهر القادم في مسرحٍ كبيرٍ بمدينة فلورانس الإيطالية. «آدم" شابٌّ هادئٌ وطموحٌ، حياته مقسمةٌ بين عزف الموسيقى وبين

عائلته الصغيرة؛ المكونة من أبيه وأمه فقط. شعرت «فرح» سريعًا بالراحة بمعرفتها به؛ فقد اجتمعا على حب نفس الأشياء، عزف نفس الآلة، نفس الشغف بالموسيقى مع قليلٍ من الاختلاف في الثقافة.

لم تنقطع زياراتها نهاية كل أسبوع لبيت العائلة، بيت طنط «ثريا»؛ ذلك البيت الذي قضت فيه أيامًا مليئةً بالبهجة والحياة. لم تستطع بعد التحرر بلا قيودٍ والاستقلال بحياتها، فتلك الوحدة كادت تقتلها يومًا عندما رحلت أمها.

لماذا عادت وحيدة؟ لماذا تركت البيت وهربتْ إلى هذه الوحدة الإجبارية التي فرضتها على نفسها؟ لم تكن أمها لترضى بها وحيدةً هكذا.

أما «عمر» فقد انتقل للعمل في مدينة فلورانس الإيطالية. كان يعود ويقضي عطلة نهاية الأسبوع معهم. كان يلتقي بفرحٍ كل أسبوعٍ. لا يعرف لماذا يفتقدها كثيرًا منذ أن تركتْ المنزل. لماذا يحن لنزهاته معها وينتهز أي فرصةٍ كل أسبوعٍ لينفرد بها ويدعوها لفنجان الكابتشينو الذي أدمنته في نفس المقهى.

كيف نعثر على الحب؟ أو يا ترى هل يعثر هو علينا؟

لا تستمع لكل دقات قلبك الطائشة... فبعضها خادع وبعضها مراوغ... استمع فقط لتلك الدقة التي تأتي فتبعثرك... تأتي كالريح المباغتة التي تحبس بسببها أنفاسك... ثم تطلق الهواء من صدرك فتنتشي بعدها كل خليةٍ في قلبك.

الرسالة السادسة

(الجنون)

استقرت حياة «فرح» كثيرًا بين العمل الذي تحبه كثيرًا وتتفانى فيه، وبين الموسيقى التي تنسيها كل التعب وتفصلها عن العالم بأسره. فقط كانت تفتقد مصر. كانت تحن لكل جزءٍ من حياتها هناك.

حتى لو غاب أحباؤك عن المكان فستظل تحن إلى بقعة الفراغ التي كانوا يملؤونها.

دعتها طنط «ثريا» على العشاء يوم السبت. كانت تعرف أنها تحب الأسماك بكل أنواعها. اختارت مطعمًا راقيًا في أحد أحياء روما العتيقة وتواعدا على اللقاء هناك.

وفي الثامنة مساءً أتت «فرح» وكلها شغف في انتظار المجهول! لم تكن حتى تستطيع التخمين فيما ستحويه الرسالة الجديدة. ولكنها للحظةٍ أدركت أن ما تنتظره ليس فقط رسالة أمها، أوليست الحياة هي التي تراسلها منذ اليوم الأول؟ ولعلها ترسل لك أنت أيضًا كل تلك الرسائل مع اختلاف نوع الرسائل.

هل استلمت رسالتك اليوم؟

ونتلقى كل يوم في صندوق البريد رسالةً جديدةً... مدون فوقها:

المرسل إليه: أنت

المرسل: الحياة

وبعد الترحيب والعتاب المعتاد من «ثريا» لفرح على تركها المنزل وسكنها بمفردها، بدأت الحكاية الجديدة.

حكت لها ظروف الرسالة التالية وسبب تأخيرها كل هذا الوقت. قالت لها أن والدتها تركت لها تقدير الوقت المناسب؛ وحيث أن هذا عبءٌ كبيرٌ، فقد كان عليها أن تنتظر هذه المرة طويلًا حتى تستقر الأمور. قالت لها أيضا أنَّ ما في الرسالة القادمة صعب تنفيذه وعليها فقط أن تفكر جيدًا وتختار ما يناسبها.

ولم تزدها كلمات «ثريا» إلا قلقًا.

وعلى العشاء دار الحديث التالي:

– على فكرة مش إنتي بس اللي بقيتي بتوحشيني... «عمر» كمان من ساعة ما بدأ شغل في فورانس وبقيت أشوفه زيك كل ويك إند بس. قالت «ثريا».

– انتوا كمان والله بتوحشوني أوي... بس طول الأسبوع بكون مشغولة بين الشغل ومعهد الموسيقى ودروس الكمان... ومواعيدي بقت متلخبطة جدًا. ردت «فرح» ثم أردفت قائلةً وهي تضحك:

– بس مش كده أحسن علشان ما تزهقوش مني؟ علشان ألحق أوحشكم!

– أنا على فكرة سيباكي براحتك يا «فرح» شوية كده... وبعد كده حاجي أجيبك بنفسي أو حاجي أقعد معاكي. قالت طنط «ثريا»

وضحكت.

كانت طنط «ثريا» تذكرها كثيرًا بأمها.

كان تحمل نفس الروح القوية المشاكسة أما داخلها فتجري أنهارا من الحنية والرقة... تلك الشخصية التي تحيرك كثيرًا مثلما تجبرك على حبها في الحال.

الرسالة السادسة...

«حبيبتي الغالية...

لا أعرف ماذا حققتِ حتى الآن... ولكن دعيني أخمن!

هل وصلت للقمر؟ هل ذهبتِ في رحلةٍ إلى شلالات نياجرا؟ هل تعلقتِ بجبال الألب في سويسرا؟ هل ركبتِ القطار المجنون في مدينة الملاهي في اليابان؟ هل قفزت من الطائرة بالبارشوت من ارتفاع آلاف الأميال؟ هل ذهبتِ خلف «ياني» لحضور حفلة لايف في مدينةٍ بعيدةٍ؟

هل ما زلت تتذكرين قائمة أمنياتنا المعلقة؟ هل ما زلت تحتفظين بالـ (bucket list)؟

أتتذكرين تلك القائمة المجنونة التي كتبناها معًا؟

ربما حان الوقت لقليلٍ من الجنون!

أعرف يا صغيرتي أننا كنا نحلم بتحقيقها معًا... ولهذا عليكِ أن تختاري شخصًا ليرافقك هذا الجنون... ابحثي جيدًا عن الشخص المناسب... ألم يصادفك شخصًا يستحق أن تشاركيه جنونك؟

هل تذكرين حكاياتي المجنونة التي حكتها لك مع والدك... هل لي الآن أن أحكي لكِ سرًا؟

أتعرفين أنني كنت أقع في حب «شريف» من جديد عندما نطلق لجنوننا العنان؟ كانت الحياة تضحك معنا ونحن نعيشها بلا خوف، بلا أحزان، بقليلٍ من الجنون وكثيرٍ من الحب؟ كان يقول لي دائمًا: «اوعي تخافي وأنا معاكي». كنت أحب قربه وأمانه وحنانه كثيرًا.

ولكنه تركني... !

ولكن هكذا كان قدره. تعبت كثيرًا بدونه... ولكنني كنت دائمًا أشعر بوجوده حولي.

كنت أتوسل لذاكرتي كثيرًا بألا تنسى ذكرى حلوة بيننا، ألا تنسى كلمة جميلة قالها... بألا تخذلني يومًا!

كنت أقرأ مذكراتي اليومية ثانيا محاولة تذكر كل كلمة كتبتها بتأثيرٍ منه أو بإلهامٍ من أحد أفعاله.

نعم... لقد فعلت كل هذا لأتغلب على غيابه... فعلت كل هذا ولم أكن لأتصور أن أتركك وحيدة أيضا مثلما تركني هو مبكرًا... مبكرًا جدًا!

ربما كان هذا أحد أسباب ترك هذه الرسائل لك.

أما السر فسأقوله لك الآن: هل تتذكرين صورنا أنا و«شريف» في اسطنبول؟ بين الصور ستجدين صورة لسلطان وسلطانة من عصر العثمانيين، أعرف أنك تعرفين أنها لي أنا ووالدك، ولكن الذي لم أقوله لك أننا قضينا الليلة في أحد

القصور القديمة والتي تؤجر غرفها بالليلة لكل اثنين ليقضوا ليلةً عثمانيةً قديمةً على غرار ليالي الجواري. كم أخجل من نفسي وأضحك كثيرًا كلما تذكرت هذه الليلة. لقد قضينا ليلةً مجنونةً كانت كفيلة بانتزاع الضحك منا كلما تذكرناها. كنت أنا الجارية لوالدك السلطان العثماني. فعلنا كل ما هو مجنون وقتها. كانت ليلةٌ من ليالي العمر. لم أكن قد أنجبتك بعد... ولعلك أتيت بعد هذه الليلة تحديدًا! فبعد هذه الرحلة عرفت أنني حامل!

والآن... عليك بتنفيذ أي من المكتوب في قائمة الأمنيات المجنونة التي كتبناها سويًّا... ربما تريدين إضافة شيء جديدٍ لها... افعلي ولا تخشي شيئًا.

الحياة العاقلة مملة... قليلٌ من الجنون يضيف دائمًا مذاقًا حارًّا يشعل كل خليةٍ في جسمك... تعودين بعدها على الأرض أكثر حريةٍ وبمقدار «أوفر دوز» من السعادة!

«اختاري أي حاجة مجنونة واعمليها... بس خلي بالك... اتجنني بحساب... اتجنني بس وانتي متأكدة إنك قادرة تكوني عاقلة... اتجنني ودوري على حد يشاركك جنونك... أتمنى أن تحسني الاختيار».

إمضاء / ماما

حتى يحين اللقاء...

كلمات أمها في هذه الرسالة مبهجةٌ للغاية. كانت كفيلةً بمداعبة قلبها وتحفيزها على الاستمتاع بالحياة كما كانت تحب دائمًا. ولكن ألم فقدانها لأمها سلب الحياة طعم البهجة، حتى لوحاولت أن تتظاهر

بالعكس مؤقتًا، ستظل تلك الكدمة تؤلم قلبك بمجرد أن تلمسها.

من يا تُرى سير افقها في هذا الجنون؟ وأى جنونٍ ستختار؟ قفزت «كارمن» في رأسها أولًا. فعلاقتها بها تعدّت الصداقة بكثير؛ فهي تعتبرها أختها التي لم تلدها أمها. فتلك العلاقة التي كانت تربط الأمهات سابقًا غالبًا ما تنتقل عبر الزمن إلى الجيل التالي.

كان عليها أولًا أن تنبش في صندوق الذكريات الذي ر افقها إلى روما؛ ذلك الصندوق الذي يحوي كل حياتها الماضية مع أمها. ذلك الصندوق المملوء بالحنين والذكريات. بحثت عن قائمة الأمنيات التي ذكرتها بها أمها. ضحكت من خطها العشو ائي الذي كتبت به القائمة، تذكرت كم كانت تضحك وهي تكتبها مع أمها.

تعجبت كيف تذكرت تلك اللحظات الثمينة بكل ما دار فيها بالضبط. كيف ذكرتها تلك الورقة الصغيرة المهترئة والخط غير المنسق بها بكل ما جرى!

على قصاصة الورق الضائعة بين أور اقك، كيف يضحك الخط المكتوب وكيف يبكي؟ كيف تدلك الحروف بعشو ائيتها بحالتك في ذلك الوقت؟ كيف تنقل لك صورةً من الماضي بهذه الكفاءة؟ كيف لحروفٍ ضالّةٍ على ورقةٍ أن تأتي بكل هذا الحنين؟ كيف تحييك الكلمات وكيف تقتلك من جديد؟

استقرت «فرح» على المغامرة المجنونة التي سوف تبدأ بها من كل تلك القائمة الطويلة. نعم، كانت القائمة طويلةً جدًا، وتضج بعض الأفكار بها بالجنون البيّن. ولكنها اختارت أقلهم جنونًا، على الأقل في الوقت الحالي. اختارت القفز بالبار اشوت!

مرت الأيام بحلوها ومرها، كانت تنتظر «فرح» أن تأتي إجازتها السنوية بفارغ الصبر. فقد أعدت كل شيء لفكرتها المجنونة. اختارت سويسرا لتنفيذ الخطة. فقد قرأت كثيرًا عن مغامرة السقوط من أعلى مدينة إنترلاكن السويسرية؛ والتي ترتفع 570 مترًا فوق سطح البحر.

أما «عمر» فكان يتنقل بين روما وفلورانس. كان يقضي عطلة نهاية الأسبوع بين البيت والتنزه مع بعض الأصدقاء. لم يعد يرى «فرح» مثلما كان من قبل. فقد كانت تعتذر أحيانًا كثيرةً عن المجيء حتى في عطلة نهاية الأسبوع، إما بسبب إرهاق العمل أو الانشغال بالعمل حتى وقت الإجازة، بالإضافة إلى تحضيراتها النهائية للحفل الكبير الذي سيقام آخر العام في مدينة فلورانس الإيطالية.

باتت كل التحضيرات جاهزةٌ لرحلة العمر. كانت «فرح» متحمسةً بجنونٍ لهذه الرحلة. كان الانتظار في حد ذاته كافيًا بإشعال الحياة داخل قلبها من جديد. كانت ممتنّةً جدًا لهذه الرسالة التي لم تكن لتخطر ببالها لولا والدتها، فقط تمنت أن تكون قد أحسنت اختيار الشريك كما أوصتها؛ ومن يصلح في رحلةٍ مثل هذه إلا صديقٌ جيد يحبك؟

«كارمن» ما زالت تدرس تجارة الأعمال في السنة النهائية بالجامعة، وكانت فترة السفر التي اختاروها معًا مناسبةً لعطلتها الصيفية الطويلة.

ولكن... دائمًا ما يكون للقدر ترتيباتٌ أخرى!

رن جرس الموبايل مساء يوم الخميس الذي يسبق السفر

بأسبوعٍ واحدٍ. استيقظت «فرح» من نومها فزعًا...

– ألو... أيوة إزيك يا طنط... خير مالك؟ ردت «فرح» والفزع يغلف صوتها.

– «كارمن» يا «فرح»... احنا في المستشفى... وقعت ورجلها اتكسرت ودخلت العمليات. قالت «ثريا» بصوتٍ يرتجف من القلق.

– يا خبر... إيه اللي حصل؟ سألت «فرح».

– وقعت النهاردة الصبح وهيا راجعة من الجامعة. الكسر كبير في مشط الرجل ولازم تثبيت بمسامير وشريحة. ما تقلقيش يا «فرح» إن شاء الله هتبقى كويسة. قالت «ثريا».

وفي صباح اليوم التالي في المستشفى تجمع الجميع للاطمئنان على «كارمن» بعد العملية. كان لا يوجد ما يدعو للقلق، فالعملية كانت ناجحةً وستبقى ليلةً واحدةً فقط في المستشفى.

كان كل القلق يحدث سرًّا في عقل «فرح» المسكينة: فكيف ستسافر بدون صديقتها الآن؟

– أنا متضايقة إني مش حاقدر أسافر معاكي يا «فرح»... ما تعرفيش كنت متحمسة إزاي. قالت «كارمن» وهي ترقد على سرير المستشفى بقدمها الملفوفة بالجبس.

– ولا يهمك... أنا هأجل السفر... ونروح سوا لما تقومي بالسلامة. ردت «فرح» سريعًا دون تفكيرٍ.

– إيه ده... لأ طبعا متأجليش حاجة... إنتي محتاجة الإجازة دي... وانا عارفة أد إيه هيا مهمة بالنسبة ليكي. ردت «كارمن» منزعجة من

قرار «فرح».

– لا مش مشكلة... الرحلة ممكن تتأجل... أنا مش عايزة أروح لوحدي. قالت «فرح».

– و أنا رحت فين؟ قاطعها «عمر» بكل جديةٍ.

تفاجأت «فرح» برده السريع، ربما كان يمزح كما يفعل دائما. ولكنه لم يكن هذه المرة!

– طبعًا إذا ماكنش عندك مانع. أردف «عمر».

ارتبكت كل الأشياء في رأس «فرح» وتخبطت كل الأفكار ببعضها، لم تمهلها كل تلك الضجة التي تحدث داخل عقلها وقتًا للتفكير، ثم فجأة رد لسانها دون تفكيرٍ:

– لأ طبعا يا «عمر» معنديش أي مانع... بس المهم تكون انت عندك أجازة.

– حاخد أجازة يا ستي... أنا حرتب كل حاجة... وبعدين بقى على فكرة أنا حكون معاكي أحسن منها؛ لأني عندي خبرة ونطيت بالباراشوت مرتين قبل كده و أنا في أمريكا. قال وهو يشير إلى أخته الر اقدة على السرير.

ضحكوا جميعا ورحبوا بفكرة «عمر» كثيرًا؛ وخاصةً طنط «ثريا». فقد أتت هذه الخطة البديلة على هواها تمامًا.

فنحن نقرأ تلك الرسائل التى تصل «فرح» فقط، ولكن يبدو أن هناك ثمة رسائلٍ أخرى لا نعرف نحن عنها شيء!!

لم تعرف النوم ليلتها. كيف تبدلت الخطة المرسومة هكذا بين

ليلةٍ وضحاها؟ كيف تجرؤ الحياة على مفاجأتنا هكذا؟ كيف لنا أن نتقبل المفاجآت المتتالية؟

كم أكره مفاجآت الحياة!

نصف جمال الرسائل في وصولها مباغتةً للوقت والمكان... والنصف الآخر في الإثارة التي تعتريك و أنت تفك شفرتها.

وفوق العاصمة الإيطالية حلقت الطائرة عاليًا حتى لاحت في الأفق تلال جبال الألب السويسرية الشامخة. كان المشهد من أعلى أشبه بلوحةٍ زيتيةٍ رسمها فنانٌ مخضرمٌ. فالسحب العابرة تتحرك لتعانق قمم الجبال الشاهقة البياض بخطوطٍ خضراء من الأشجار البعيدة جدًا من هذا الارتفاع.

ظلت «فرح» طوال الرحلة التي استغرقت ثمانِ ساعاتٍ تحكي لعمر قصة أمنياتها المجنونة والتي على وشك البدء في تنفيذ أولها. كان يتابعها بشغفٍ لم يخلُ من الإعجاب لحظةً. كان يرى أمامه كتلةً من الحيوية وطموحًا لا حدود لهما. خفة روحها كانت تذهب به بعيدًا، أما انبهاره بعينيها الغارقتين في العسل لم ينقطع أبدًا منذ أن رآها. لم يكن يعرف بعد سر جاذبيتها. فكل شخصٍ يجذبك لأمرٍ ما قد لا تراه إلا أنت؛ فبعضهم ينجذب للروح، وبعضهم ينجذب للشكل؛ وآخرون يجذبهم سحر الحديث.

غفت «فرح» قليلًا في الطائرة وذهبت بعيدًا في أحلامٍ لم تعرف إذا كانت حقيقة أم أنه فقط عقلها الباطن الذي يختلقها!

رأت في منامها نفس الحلم الذي رأته من قبل. حلم العملات المعدنية وخطابات أمها التي اصفرت أوراقها. رأت نفس تفاصيل

الحلم عند نافورة تريفي وسمعت نفس ذلك الصوت الذي يأتيها من الخلف؛ تمنت أن تكتشف هذه المرة مَن هو هذا الشخص الذي يهمس لها ولكنها دائمًا ما تستيقظ قبل أن تعرف. فتحت عينيها سريعًا لترى عينيْ «عمر» مباشرةً أمامها تحدقان بها. شعرت بخجله الشديد عندما ضبطته متلبسًا بهذا القرب.

لم يتحدثا بعدها لفترة، كان محرجًا منها للغاية، لم يكن هناك ما يمكن قوله. فكيف سيبرر اقترابه منها وهي تغط في نومٍ عميق هكذا؟ كيف سيشرح لها كم كانت جميلةً وهي نائمة؟ كيف سيصف لها كم كانت تشبه الملائكة؟ كيف سيعترف لها أنه حاول لمس شعرِها المنسدل فوق جبينها ولم يمنعه إلا خوفه من أن تستيقظ؟ كيف سيبرر لها تحديقه بملامحها الهادئة؟ إنها تبدو كفتاةٍ عاديةٍ ولكن بتفاصيل غير عاديةٍ. سرٌّ ما يكمن في وجهها؛ ربما في وجنتيها باستدارتهما المغرية، أم في حاجبيها السميكين والمتروكين على طبيعتهما، أم هل هي شفتاها المرسومتان بأحمر شفاهٍ أحمر كدعوةٍ سريةٍ للقُبَل؟ ثم كيف سيفسر لها كم كان قربه منها راحةً لم يشعر بمثلها من قبل؟

سوف تستغرق إجازتهما في سويسرا سبعة أيامٍ. تنقلوا خلالها بين جينيف وزيورخ وبرن وتبقت لهم في نهاية الرحلة زيارة مدينة إنترلاكن. تلك المدينة التي يحلم بها الكثيرون نظرًا لموقعها الفريد من نوعه وطبيعتها الساحرة. وقد قرأت عنها «فرح» الكثير قبل أن تسافر. تقع المدينة بين بحيرة «برينز» في الشرق وبحيرة «ثون» في الغرب. يتدفق نهر «آر» عبر المدينة واصلًا البحيرتين. تقع أنترلاكن على ارتفاع 570 مترا فوق سطح البحر كما تحيط بها ثلاثة جبالٍ شهيرة.

هل تخيلتم معي الآن كم سيكون المشهد عظيمًا من أعلى؟

وجاء اليوم الذي انتظرته «فرح» كثيرًا.

جاء وقت تنفيذ الأحلام!

تنطلق صافرة القطار معلنةً الوصول لمحطة تحقيق الحلم: تلك المحطة التي تصلها بعد الطريق الطويل... تلك المحطة التي أبدًا لن تعود منها كما كنت من قبل.

ويبدأ الحلم!

حكى لها «عمر» كثيرًا عن مغامراته السابقة وخبراته في القفز بالمظلات. حاول أن يطمئنها لما شعر بقلقها الشديد عندما اقتربا من الموقع المخصص لبدء المغامرة، أعطاهم المدربين هناك قائمةً بالتعليمات التي عليهم أن يلتزموا بها أثناء القفز. لم تكن «فرح» تعرف أن الأمر يحتاج أن تستجمع كل قوتها من الشجاعة لكي تنفذ ما كانت تحلم به، يبدو أن الأمر أصعب بكثيرٍ عندما يصل حلمك إلى أرض الواقع.

وفوق السحاب حلقت الطائرة على الارتفاع المطلوب والمناسب للقفز. شعرت «فرح» برهبةٍ هائلةٍ لم تغب على أحدٍ من المرافقين لها. وبالطبع لم تغب عن «عمر». ارتفع صوت محركات الطائرة وارتفع معها صوت ضربات قلبها، لم تعد تعرف كيف ستهبط من هذا الارتفاع بقلبها الذي يرتجف هذا؟

– إنسي كل حاجة واستمتعي... إنسي كل الخوف وارميه معاكي لما يتفتح الباراشوت... سيبي الأدرينالين يشوف شغله. كان هذا «عمر» محاولًا تخفيف الرهبة التي شعرت بها «فرح».

هل أنتم مستعدون معي للسقوط؟

هل أنتم مستعدون للقفز في الهواء؟ مَن مِنا لم يحلم مرةً بترك الدنيا والقفز في اللاشيء؟ مَن مِنا لم يحلم في منامه بالسقوط من أعلى فيستيقظ فزعًا على فراشه؟

فتحت الأبواب... استعد الجميع؛ ربط كل اثنين بإحكامٍ ببعضهما وكأنهما كيانٌ واحدٌ، كل مغامرٍ مربوطٌ بقافزٍ محترِفٍ.

وبدأ العد التنازلي للسقوط في الحلم!

ارتفع صوتها بالصراخ المغلف بالحماس والكثير من الخوف. لفحها الهواء المتسارع المجنون وهي تسقط فأغلقت عينيها برغم أن النظارات التي ترتديها تحميها... وفجأة شعرت بيدٍ تهزها سريعًا وهي تسقط... ففتحت عينيها لترى «عمر». كان يضحك على خوفها ويريدها أن تستمتع بالمشاهد الساحرة التي تفوتها. أشار لها بيده إلى الأسفل... وما كادت تنفذ ما يقوله حتى فتحت المظلة فشدتها عاليًا و ابتعدت عنه... هدأ السقوط نسبيًا وهدأ تدفق الإدرنالين في عروقها... ونظرت «فرح» حولها...

ما كل هذا الجمال؟

لماذا يبدو العالم جميلًا دائمًا من بعيدٍ؟

كيف تضاءل حجم الأشياء هكذا؟

أهكذا هي حياتنا بسيطة وقصيرة ولا تستحق كل هذا العناء؟...

شاهدتُ جمالًا لم تره عيناها من قبل... شاهدتُ سلاسل من جبالٍ يكسوها بياض الثلج... تحاوطها غابةٌ من الأخضر... تعانق

أنهارًا غارقةً في الزرقة بتدرجاتها... يتخللها بصيصٌ من سحابٍ أبيضٍ شفافٍ... كم لونًا تحمل هذه اللوحة باذخة الجمال؟

وضعت قدميها على الأرض من جديدٍ. ارتطم جسدُها ببطءٍ، شعرت بالأمان من جديدٍ... وصلت بسلامٍ من حيث بدأت...

ولكن هل أتت مثلما ذهبت؟

للحياة أماكنُ سريةٌ مبهرةٌ... لو كنتَ محظوظًا سترشدك إلى إحداها يومًا... عندها فقط ستعرف كم من الوقت قد أضعت... وكم رقمًا من العمر قد انتهى هباءً.

انتهت الإجازة و انتهت الأيام الحلوة سريعًا كما تنتهي دائمًا كل الأشياء التي نحبها. عادت «فرح» إلى روما بصحبة «عمر». كانت «فرح» مشغولةً بجرعة السعادة التي عادت بها من هذه الرحلة.

بعد رحلتها الجميلة وصلت بسلامٍ إلى مطار روما ومعها من الحقائب والهدايا وزنًا لا بأس به، ولكنها كانت تخشى أن تدفع وزنًا زائدًا عما كانت تحمله داخل قلبها من بهجةٍ وسعادةٍ!

لم تكن فقط المغامرة التي فعلت كل هذا. كان لقرب «عمر» كل تلك الفترة شأنًا لا يستهان به. كانت تحاول إخفاء تلك الأفكار عن قلبها. كانت تراوغه حتى لا يستجيب لطاقة الحنية التي كان يمدها قربه منها. حاولت أن تلهيه كلما داهمها الشوق إليه. كانت تختبىء من الحنين الذي يفاجئها دون سابق إنذارٍ... ولكن هل ستفلح في الهرب طويلًا من هجمات قلبها المنظمة؟

وعادت الحياة تسير بشكلها المنتظم الروتينيّ من جديد. انشغلت «فرح» بتجهيزات الحفلة الموسيقية التي تتدرب عليها منذ

وقتٍ طويل. عادت لدروس الكمان المكثفة. كانت تذهب ضعف المرات التي كانت تذهبها من قبل. كان الأمر مرهقًا للغاية، فبين العمل والتدريبات لم تجد «فرح» وقتًا للراحة، ولكنها كانت سعيدةً، متألقةً ومتحمسةً للغاية. لم تعرف من أين أتت بكل هذه الطاقة؟

هل هي المغامرة الأخيرة أم لعلها مغامرةٌ جديدةٌ على أبواب قلبها؟

تقابل «فرح» «آدم» بشكلٍ دوريّ. كانا يمضيان كل الأيام تقريبًا سويًا، حتى أوقات الراحة كانا يتدربان معًا في أحد الأستديوهات الخاصة. كان يأخذها لمطعمٍ يقدم بعض الأكلات التركية التي تحبها «فرح» كثيرًا. أحبت رفقته الهادئة. فحبه للموسيقى جعل منه شخصًا مميزًا للغاية. كانت تشعر بحس الأنثى الذي لا يخطئ أنه يحبها. كان يلمح بذكاءٍ، كان يقترب بحرصٍ وكانت هي تراوغه وتتهمه بالتسرع، وبرغم ميلها الواضح له، إلّا أن قلبها لم يحسم الأمر بعد.

كان عاشقًا من طراز النبلاء القدامى. كان حبه حاسمًا مثلهم. قاطعًا لا يحتمل التأجيل.

لم يكفّ «عمر» عن الاتصال بفرحٍ بصفةٍ شبه يوميةٍ. فبعد رحلتهما معا يبدو أنه أدمن سماع صوتها.

كان يقول لها أنه يتصل ليطمئن عليها، ولكن يبدو أنه كان يطمئن أيضًا على قلبه!

أما هي فكانت لا تستطيع إخفاء فرحتها باهتمامه هذا، كانت فقط تخشى التعود عليه أكثر من اللازم. وفي نفس الوقت كان «آدم» يقترب كثيرًا. كان يحمل لها في قلبه الكثير، ربما فقط ينتظر الفرصة

المناسبة ليعلن لها عن حبه، وبرغم أن أفعاله و أقواله كانت تقول كل شيء إلا أنه كان ينتظر الوقت المناسب!

في «فلورانس» مدينة الجمال الراقي وصلت «فرح» و«آدم» وباقي أفراد الفرقة الموسيقية استعدادًا للحفل الكبير. وعدها «عمر» بأن يلحق بها هو والعائلة؛ فأحدا لم يكن ليضيع حفلةً كهذه، فجميعهم سيذهبون لتشجيعها، فلم تعد تملك في الحياة غيرهم.

إنها ليلةٌ حالمةٌ، تشبه ليالي ألف ليلة وليلة عزفت الفرقة الموسيقية ألحانًا عالمية رائعة. كانت الأوركسترا تلعب على أوتار القلب مباشرةً. انسابت الموسيقى لتتخلل الروح فتطربها وينتشي الجسد من البهجة. لعبوا موسيقى «فيفالدي» الشهيرة الفصول الأربعة. تلك المقطوعة المجنونة بسحرها وثرائها العالي الحس والرقي. إنها المقطوعة التي تشبه التعويذة التي تسقط عليك فتسحرك للأبد.

«إذا لم تؤرجحك الموسيقى فهي ليست موسيقى» ذلك ما قاله يوماً عبقريّ الجاز «ديوك إلينغتون» لينطبق حرفياً على مقطوعة «الفصول الأربعة» للإيطالي انطونيو فيفالدي، تلك التي ما إن تسمعها وتقع في غرام الموسيقى الكلاسيكية. وظف فيها فيفالدي كل أحاسيسه فانسابت الإيقاعات بالعذوبة الممزوجة بالسحر. تراوحت موسيقاها بين السرعة والبطء لتعبر عن ثلوج الشتاء وعواصفه وأزهار الربيع المتفتحة، وعودة الطيور بأغانيها البهيجة، وحرارة الشمس اللاذعة، ورائحة الصنوبر، واحتفال المزارعين بحصاد مواسمهم في الخريف.

هذه المقطوعة عبارة عن لوحةٍ موسيقيةٍ عالية البهجة، تشبه

إلى حدٍ كبيرٍ لوحات الرسام «ماركو ريتشي» عن الفصول الأربعة والتي استلهم منها «فيفالدي» قصائده الأربع القصيرة والتي كتبها خِصّيصاً لهذه المقطوعة والتي مكنته من تغيير وجه الموسيقى ومسارها التاريخي، وتجسيد ذلك استخدم «فيفالدي» 12 حركة كونشيرتو للكمان، وهي التي منحته قدرة التعبير عن أمزجة «الفصول الأربعة» وتقلباتها، ووصف مشاهدها من دون كلماتٍ، فجاءت «الفصول الأربعة» دليلًا على قوة الموسيقى الوصفية.

ولكن كيف أمكن لبضع نوتاتٍ موسيقيةٍ كتبت على ورقةٍ صغيرةٍ قبل ثلاثة قرونٍ أن تعيش طوال هذه السنوات بل وأن تصبح برأي بعض النقاد أحد أشهر معالم الألفية الماضية دون أن يخفت بريقها أو يخبو سحرها أو يتوقف الناس عن سماعها؟ قد يكون أحد الأسباب بالإضافة طبعًا إلى جودة الموسيقى وقيمتها الإبداعية، هو أن العالم يتغيّر باستمرارٍ لكنْ ما بداخلنا لا يتغيّر. والإنسان عادةً يحتاج للراحة والتأمّل اللذين توفرهما الموسيقى وهو لا يهتم كثيرًا مثلًا بمن كَتَبَ الموسيقى ولا في أي عصرٍ ظهرت.

ومن المثير أن نعرف أنه وفي عام 1703 كان «فيفالدي» يعمل مدرّسا للموسيقى في ملجإٍ للأيتام بمدينة فينيسيا. وكانت مهمّته تعليم الفتيات العزف على الكمان. وقد خامرته فكرة إنجاز هذا العمل في تلك الفترة بالذات. فإن لتعلم الموسيقى سحرًا وأهميةً قد تضاهي في أهميتها حاجة الإنسان للهواء. لم تختر «فريدة» الموسيقى عبثًا في رسالتها لابنتها؛ فقد أرادتها أن تحيا الحرية والجنون معًا.

لا تزال مقطوعة «الفصول الأربعة» حاضرةً بقوةٍ على المسارح العالمية برغم مرور مئات السنين على ظهورها الأول، حيث كتبها

فيفالدي عام 1720. لقد حاكى فيها نهج الطبيعة وقوانينها. هي ترجمةٌ موسيقية للحياة، لمشاعر الفرح والحزن. هي عبارة عن سلسلةٍ وجدانيةٍ، تتقلب مشاعرها بتقلبات الحياة؛ فالصيف يفيض حباً، يعقبه الخريف كمقدمةٍ لشتاءٍ قارصٍ، يعصف بالأزهار وتمحو أمطاره الآثار التي خلفها العشاق على مقاعدهم، فيأتي الربيع ليزهر الحب مرةً أخرى.

كانت «فرح» تحلق في أحضان الكمان. لم تعد تشعر بالأرض من تحتها. فصخب الموسيقى دائمًا ما ينقلك من عالمك إلى عالمٍ بعيدٍ لا تتمنى العودة منه أبدًا. كان «عمر» يجلس بين الجماهير وبين أخته وأمه. لم يكن يرى أو يسمع إلا هى، كان يسمع صوت الكمان وكأنه يعزف له هو فقط. لم يستطع كل هذا الحشد الكبير من الموسيقيين أن يشتت انتباهه عنها. كان مبهورًا بهذا الشغف الذي كانت تعزف به «فرح». كانت تلعب بالكمان وكأنها تسبح في الفضاء وحدها. لم تكن تشعر بوجود أحدٍ. هي والكمان وعالمٍ من الموسيقى فقط.

ضجت الصالة الكبيرة بالتصفيق بعد انتهاء الوصلة الموسيقية الأولى. استطاعت «فرح» أخيرًا أن تفتح عينيها؛ فقد كانت مغمضةً طوال العزف. فتحت عينيها وتجولت سريعًا بنظرةٍ خاطفةٍ على الجماهير باحثةً عنه. وفجأة توقفت الكاميرا عن الدوران وتوقف البحث عندما التقت عيناها به. رأته و اقفًا يصفق بحماسٍ كبيرٍ، ليس هو فقط، طنط «ثريا» وكذلك «كارمن» أيضًا.

لم تستطع أن تخف سعادتها بهم حتى إنها لوحت لهم بيدها سرا دون أن يراها المايسترو. كان قلبها يصفق من الفرحة وسط تصفيق الجماهير. الآن فقط أدركت إنها ومن أجل هذه اللحظة فقط كانت

تتعلم عزف الكمان.

فنشوة النجاح التي تجلب عاصفةً من التصفيق تستحق كل العناء.

انتهتْ الحفلة ووقف كل أعضاء الفرقة تحيةً لتصفيق الجماهير، وبعد أن انتهت الجلبة في القاعة بدأ الناس في الرحيل. توجهوا جميعًا إلى أبواب الخروج، ما عدا «عمر» الذي استأذن أمه وأخته قليلًا ليفاجأ «فرح» في الكواليس قبل أن تخرج. كان يحمل باقةً من ورود عباد الشمس الصفراء التي تعشقها.

ممرات الكواليس كانت طويلةً ومضللةً للغاية، فالمسرح كبيرٌ وكذلك الكواليس. استغرق وقتًا طويلًا حتى يصل لمكانها. ظل يسأل كل من يراه ليدله على مكان الفرقة.

وها قد وصل أخيرًا... أولعله وصل متأخرًا!

تسمرت قدماه أمام باب الغرفة، وتسمرت معها عيناه!

كان «آدم» راكعًا على الأرض وممسكًا بيده علبةً صغيرةً من القطيفة يمدها لفرح!!

كان يعرض عليها الزواج!!

لم يشعر بنفسه إلا وهو يجري بعيدًا جدًا عن الغرفة حتى لا يراه أحد. حتى أن باقة الورد سقطت من يده ولم يهتم أن يلتقطها.

لم يستوعب «عمر» المشهد الذي رآه منذ قليلٍ. لم تستطع عيناه أن تبتلع الصدمة ولم يستطع هو الاقتراب من والدته ومن أخته. كان عليه أن يهرب الآن من كل شيء. سيهرب حتى يتمالك

أعصابه. سيهرب حتى لا تفضحه عيناه.

للحب سحرٌ يطل دائمًا من نافذة العين... فذلك البريق الذي يلمع منها وتلك الضحكة التي ترتسم عليها لن تخفى على أحدٍ.

بحثت «فرح» عن الجميع بعد الحفل. انتظروها كثيرًا ولكنها كانت تجري حتى تلحق بهم قبل أن يرحلوا. احتضنتها طنط «ثريا» وأمطرتها بوابلٍ من القُبُلات. لم يعرف أحدٌ كم كانت «فرح» بحاجةٍ إلى ذلك الحضن. مضى وقتٌ طويلٌ منذ أن ارتمتْ في حضنٍ معجونٍ بالحنان والحب. كم كانت بحاجةٍ إلى هذا الشعور من جديدٍ. شعور الحضن الدافئ الذي افتقدته برحيل أمها. لم تعرف كم من الوقت مضى وهي مستسلمةً لهذا الشعور المتدفق في روحها. تمسكتْ بها بشدةٍ وكأنها لا تريد أن تفلتها أبدًا. كانت متعبةً، والآن بعد مفاجأة «آدم» فهي بحاجةٍ إلى كل الاحتواء الموجود في العالم.

– فين عمر يا كارمن؟ سألت «فرح».

– مش عارفة هو مفروض سبقنا وقال إنه رايح عندك... ما شفتيهوش إزاى؟ ردت «كارمن».

تعجبتْ «فرح» من عدم وجوده في انتظارها. فقد رأت اللهفة التي كان يصفق بها على المسرح... أين اختفى يا تُرى؟

اضطروا جميعًا إلى مغادرة المكان بعد أن فشلوا في العثور على «عمر» أو حتى الاتصال به، فقد أغلق موبايله أيضًا!

ولأن الدنيا مسرحٌ كبيرٌ... فستكون يومًا ما تحت بقعة الضوء وستواجه كل هذا الحشد بمفردك... فهل تملك من الشجاعة ما يكفي لتكون أنت البطل؟

عندما يأتي المساء، تهدأ الأجواء وتبقى أنت وحيدًا بين كثيرٍ من الهدوء وحفنةٍ من الأفكار وقليلٍ من النوم.

هكذا قضت «فرح» ليلتها المثيرة. فكثرة الأحداث في الفترة الأخيرة كادت تقضي عليها. فثمة مشاعرٍ داخلها تتلاطم كموج البحر؛ فأيٍّ منها سيصل إلى بر الأمان؟ لم تكن أبدًا تعرف أنّ الأمور وصلت إلى هذا الحد في قلب «آدم».

ربما كانت تكنّ له بعض المشاعر ولكن بعد الرحلة الأخيرة لسويسرا لم تعد متأكدة. فقرب واهتمام «عمر» لم يكن خيالًا أبدًا، ولكن ماذا لو كان يشعر بها فقط مثل أخته؟ ماذا لو كان يشعر تجاهها بالمسئولية كأخٍ أكبر؟ كيف لها أن تعرف؟ ولكن... لا يهم كل ذلك...

ما تشعر به «فرح» هو المهم... أيهما تريد؟

وهل ما زال لديها الخيار؟

لم تكن تعرف لماذا كسرت قلب «آدم» ورفضت أن تقبل الخاتم الذي فاجأها به بعد الحفلة!

لماذا ترددت في قبول الارتباط به برغم ميلها الواضح له!

وهل قبل «آدم» أن يعطيها الوقت لتفكر؟ أم أن الصدمة كانت كافيةً ليبتعد عنها؟

هل صدّقها عندما نفتْ وجود شخصٍ آخر في حياتها؟ بل هل صدقت هي نفسها؟

لم يتسنّ للجميع البقاء طويلًا في فلورانس. وكان «عمر» أول المغادرين في صباح اليوم التالي للحفل. وقد برر لأمه وأخته اختفاءه

المفاجىء بأن صديقًا له كان في ورطةٍ فاضطر أن يرحل مسرعًا دون أن يودعهم. لم يهتم كثيرًا حتى إذا كانت كذبته هذه انطلت عليهم أم لا!

لم ينم ليلتها هو الآخر. كاد التفكير يأكل رأسه. كيف لم يشعر بوجود شخصٍ في حياة «فرح»؟ كيف لم يحسب حسابًا لهذا؟

هل كانت تستغفله أم لعل قلبه هو الذي كان يستغفله؟

كان يستغفله فأسقطه سهوًا في الحب.

الرسالة السابعة

(الحب)

دارت عجلة الحياة لتنقلنا إلى محطةٍ جديدةٍ من محطاتها. انشغل الجميع بعد الحفل بأعمالهم. سافرت «كارمن» لأمريكا مع بعض صديقاتها من أجل دورةٍ تدريبيةٍ في إدارة الأعمال ستستغرق شهرين، كان خلالها «عمر» هناك أيضًا لانشغاله ببعض الأعمال المتعلقة بمشروعه السينمائيّ. ذلك المشروع الذي كان حلم حياته منذ أن بدأ مشوار الإخراج. علاقته بفرح لم تكن مفهومة. فحتى هو لم يعد يعرف ما الذي أصاب قلبه. كان شعورًا بالفتور تجاه كل شيء. فقد تعمد أن ينغمس في عمله حتى لا يفكر كثيرًا. ولكنه لم يتأخر عن السؤال عنها يومًا للاطمئنان. كان ينتظر أن تحكي له هي شيئا، ولكن لماذا لم تحكِ حتى الآن؟ هل ستخفي عليه أمر خطوبتها من «آدم»؟ فقد رأى وعرف كل شيء. كان يحاول أن يعرف أي جديدٍ من والدته، ولكن لا جديد حتى الآن!

أما «فرح» فكانت تتخبط بين قلبها وعقلها.

قلبها المتعلق بحذرٍ بعمر وعقلها الر افض له إلا كأخٍ. وقلبها المتعلق بآدم الآن بعد إعلان حبه لها، وعقلها الر افض له إلا كزميلٍ.

يا لها من ورطةٍ تلك التي تمرين بها يا صغيرتي!

يا ليتني كنت بجوارِك الآن... كنا تَخَبَّطْنَا معًا في إيجاد الحل... وحتى لو لم أستطع أن أساعدك، فستكونين أكثر أمانًا و أنتِ في حضني!

عندما تمر الأيام بطيئةً...

عندما تخلو من أي جديدٍ...

عندما لا تستطيع أن تفرّق بين اليوم والأمس...

عندما تفقد الإحساس بطعم الأشياء...

لا تأمن كثيرًا لهدوء الأيام... فالهدوء غالبًا ما يسبق العاصفة... أو المفاجأة!

الرسالة السابعة...

حبيبتي الغالية...

«ها قد وصلتِ إلى المحطة التي يقف عندها قطارُ الحياة قليلًا... إنه مفترق طرقٍ... وعليكِ أنتِ أن تحددي أي طريقٍ ستتخذين... هذه المحطة هي واحدةٌ من أهم محطات حياتِنا، إنْ لم تكن أهمهم. عليكِ أن تقرّري لمن ستهدي قلبكِ حتى آخر يومٍ في عمرك.

يبدو قرارًا صعبًا. نعم... فتلك دائمًا قرارات القلب، أما قرارات العقل فحاسمةٌ دائمًا!

لن يكون سهلًا أبدًا أن تعرفي جيدًا ما يدور في قلبه.

لن يكون سهلا أبدا أن تعرفي مدى إخلاصه لك.

لن يكون سهلا أبدا أن تعرفي ماذا ستجلب لكما الحياة معا في المستقبل.

ولعل أسهل الطرق هو أن تتبعي قلبك أنت... هو دليلك وسيرشدك.

لا تخش كثيرا على قلبك من الوقوع في الحب... لا تقاومي!

اتركي نفسك تسقطين... أنه سقوط أشبه بالطيران... تقعين بينما تعلو روحك في السماء... تقعين بينما يرفرف قلبك كالفراشة... تقعين بينما يطير عقلك من الفرحة... أوليست هذه المتناقضات جميعا هي أجمل ما في الحب؟

اختاري الحب... واطمئني لاختيار قلبك.

أختاري من يحبك بجنون... فهو الوحيد الذي سيبقى عليك... فكيف سيحب غيرك بعد أن سلبتي عقله وقلبه معا؟

إمضاء / ماما

حتى يحين اللقاء...

كطقوس كل رسالة تحتضنها «فرح» وتغفو وهي بين يديها. كانت تحب أن تغلق عينيها على آخر جملة في كل رسالة «حتى يحين اللقاء». ماذا لو نامت وحان اللقاء؟ كانت تتمنى أن تلقى أمها بعد كل رسالة. كانت تشتاق لرائحة حضنها. كانت تحن لدقات قلبها عندما كانت تغفو على صدرها. كانت تتمنى أن تراها في منامها كل مرة.

هل هذه رسائل أمها فعلا، أم لعلها رسائل تبعثها لها الحياة؟

وتأتي شمس كل صباح لتحكي لنا حدوتة البنت الصغيرة التي

تتعلق بيد أمها لتعرف الطريق. تقفز فرحا وتداعب بيديها الصغيرتين يدي أمها. وتتودد للحياة كل يوم لتكمل لها حدوتة الأمس.

يمضي النهار بإرهاق العمل وهموم الحياة، ثم يأتي الليل بهدوئه الصاخب و أفكاره التي لا تنام... وتعاد الكرة كل يوم.

تذكرت «فرح» رسالة أمها الأولى والتي نصحتها فيها بأن تنتبه للعلامات. فالحياة ترشدنا بعلامات سرية وخاصة للغاية، لا يفهمها إلا الشخص الذي تخصه فقط. كانت تبحث عن علامات تدلها على الطريق، ترشدها لنصفها الآخر الضائع.

لم يكف «آدم» عن المحاولة ولم ييأس، برغم أنه لم يفهم بعد موقف «فرح» من رفضها له. كانت تتحجج بأنها تحتاج وقت كاف لتفكر في الأمر.

«آدم» كان مثالا للشخص الهادىء والمرهف الحس كثيرا. كان طفلا صغيرا عندما غادر تركيا مع عائلته وجاؤا جميعا إلى إيطاليا. نشأ في عائلة تقدس الموسيقى؛ فوالده موسيقار كبير، كان من أشهر عازفي العود في أنقرة. أما والدته فكانت مطربة مغمورة. اعتزلت الغناء بعد الزواج. كان «آدم» دائما ما يصف صوت أمه بالسحر الهادىء، وكان يعشقه. ولهذا فولعه بالموسيقى أصابه بفعل الجينات الوراثية.

فالمنزل الذي عاش وكبربه كانت له درجات من السلم الموسيقي وحوائط كلها آذان تنصت للآلات الموسيقية كل ليلة بينما تتمايل الأرض من تحتهم مع النغمات.

«مريم» السيدة التركية اللطيفة والدة «آدم» قامت بدعوة

«فرح» على الطعام في منزلها أكثر من مرة. هي سيدة لا تستطيع أن تفلت من طيبتها ولا مهرب لك من حبها؛ بل والوقوع في حبها على الفور. كانت توزع الحب أينما ذهبت و أينما حلت. لم يكن لآدم أخوة؛ فهو وحيد مثلها تماما، ولكنه ليس وحيدا أبدا وسط هذه العائلة الجميلة. كانت «فرح» تحب وجودها بينهم. بل كانت تتمنى أن تكون لها يوما ما عائلة مثلها.

كانت لفرح في الغربة أكثر من أم. طنط «ثريا» الصديقة المخلصة لأمها والتي تعتبرها بمثابة الأم الروحية لها، ليس فقط لقربها الشديد من والدتها الراحلة بل ولأنها تحمل بعض صفاتها أيضا، والآن هي تحمل وصيتها الغالية. أما «مريم» فهي الأم المثالية بكل جدارة؛ هي المادة الخام للحنان والطبعة الأولى من الحب.

فمن منهما يا ترى ستكون أما لزوجها؟

انغمس «عمر» في عمله و اقترب من تحقيق حلمه وإخراج فيلمه الأول. كان بينه وبين السينما علاقة عشق سرية. كانت عيناه تلتقط الصور من الحياة وتختزنها لتكمل بها مشهد يراه في مخيلته يصلح للسينما. كان يرى تشابها إن لم يكن تطابقا كبيرا بين الحياة والسينما.

فالفيلم الجيد ليس ما يحمل فقط مجموعة جيدة من الممثلين المحترفين، بل إنه ذلك الذي يصورلك الو اقع بخيال واسع.

هرب من التفكير في أمور قلبه المعلق بفرح، وبعقله الذي لم يستوعب بعد كل هذا الهدوء. فلا جديد بعد مشهد عرض الزواج الذي رآه. هل رفضته «فرح»؟ لماذا لم تحكي له ما حدث؟ وكيف ستحكي وهي لا تعرف أنه قد عرف؟ ولكن وبرغم المسافة التي وضعها

بينه وبين «فرح» إلا إن قلبه كان يحدثه سرا إنها يوما ما ستكون له.

تحدد موعد العرض الأول للفيلم. كانت عائلته في مقدمة المدعوين وبالطبع «فرح». سافر الجميع بالقطار إلى «فلورانس» حيث الحدث الكبير. امتلأت القاعة بالمصورين والممثلين. كانت عدسات التلفزيونات المختلفة تتسابق لتسجل حديثا مع المخرج الشاب. «عمر» كان هو نجم الحفل بلا منازع. فبرغم وجود أبطال الفيلم الممثلين المشهورين إلا إن الجميع كان معني بإكتشاف مايسترو العمل كله؛ المخرج.

خرج الجميع بعد العرض وعلامات الإنبهار والإعجاب تعلو وجهوهم. لم يكن أحدا ليصدق أنه العمل الأول للمخرج. فالفيلم ذو تقنيات عالية الدقة فضلا على إنه يطرح قصة جديدة مليئة بالإثارة. أما الممثلين فخبرتهم وحدها تكفي لصناعة فيلم عالمي. امتدت السهرة طويلا هذه الليلة، فالكل كان يحتفي بعمر وبنجاح فيلمه الأول وولادة نجم جديد في عالم الإخراج. و انتهزت «ثريا» الحدث الكبير وقررت لم شمل الاسرة من جديد، فدعت الجميع للإحتفال بعمر الأسبوع القادم في منزلهم.

مر وقت طويل على لقاء «فرح» بعمر، والليلة ذهبت وفي قلبها أمنية واحدة؛ وهي أن تعرف سر ابتعاده عنها الفترة الماضية. فالكذبة التي كانت تخدع بها نفسها لم تعد تصدقها، و إنشغاله بالتحضير للفيلم لم يكن هو المانع. كان لقائهما عاديا؛ فبين كل هذه الحشود الكبيرة التي حضرت الليلة لم يكن هناك وقت كاف للترحيب بفرح على إنفراد... ولكن من قال أن ذلك منعه؟

فقد قام قلبه بالنيابة عنه بالترحيب اللائق بها وقالت دقاته كل

شيء دون أن ينطق بكلمة!

مر الأسبوع ببطء شديد.

ماذا يحدث للأيام عندما ننتظر حدثا مهما! لماذا تمضي الأيام التي لا نريدها بطيئا وتمر الأيام الأخرى السعيدة في لمح البصر؟

كل الأيام تمضي سريعا، ولكن بعضها يأتي كالنسيم خفيف ومبهج والبعض يأتي كالمطر لو لم تحتمي بمظلتك فستصاب حتما بوعكة صحية؛ وتلك تأكل الوقت والعمر!

استعدت «فرح» للحفل مبكرا، بل مبكرا جدا. فمنذ انتهاء حفلة عرض الفيلم وهي تفكر في شراء هدية قيمة لعمر. متاجر روما تغلق مبكرا طيلة أيام الأسبوع، فكان لابد لها يوما من الاستئذان مبكرا من العمل. لم يكن اختيار الهدية أيضا أمرا سهلا أبدا، كانت بحاجة لمساعدة من صديق. «كارمن» هي التي ستمدها بالمعلومات السرية عن أخيها. فقد كانت تزودها بقياساته الخاصة في الملابس، عطره المفضل، ومعلومات أخرى كانت «فرح» تسأل عنها من باب الفضول ليس أكثر!

وبعد اختيار الهدية جاء دور الفستان الذي سترتديه «فرح» في الحفل. من أين جاءها كل هذا الحماس للأهتمام بكل هذه التفاصيل من أجل حفلة؟ من أين جاءها كل هذا الشغف لإنتظار حفلة؟ من أين لها كل تلك الثقة بقلبها؟

تثق المرأة في أمرين لا ثالث لهما: قلبها ثم قلبها!

فإياك أن تعبث به!

نظرت في المرآة نظرة أخيرة لتتأكد من اللمسات النهائية. نظرت

إلى أبعد ممن كانت تقف أمامها. نظرت فرأت تفاصيلا لما تراها من قبل. كان لعينيها اليوم سحر غريب، هل هو المكياج فقط أم أنه لون الغرام الذي تتكحل به عيناها؟ هل تلك النضارة التي تكسو وجهها بسبب حمرة الخدود الجديدة التي اشترتها بالأمس أم إنها اشر اقة الحب؟ هل حقا يغير الحب ملامحنا؟

هل اعترفت للتو بوقوعها في الحب سرا؟

نعم، فلقد وشت بها المرآة!

أما «عمر» فلم يكن يعرف سبب توتره منذ الصباح. كان بالطبع متحمسا لحفل الليلة، ولكن ثمة أمر يحدث داخل قلبه وهو آخر من يعلم. لماذا لم يفلح قلبه في التخلص من حنينه إليها؟ لماذا لم يفلح في نسيان حبه لقربها؟ ليس هذا فقط ما يدعو للقلق ولكن كيف بقلب كهذا سيقابلها الليلة؟

من منهما سينجو من الفخ الذي سوف ينصبه الحب الليلة؟

بدأت مراسم الحفل بعد أن حضر جميع المدعوين. امتلأ المنزل بالأصحاب والأقارب للإحتفال بالمخرج الواعد. كان تحديا كبيرا له أن يحقق هذا النجاح من أول عمل. تلك الخطوة الأولى في بداية مشوار ما زال طويلا لحلم راوده كثيرا منذ الصغر.

تأخرت «فرح» عن الحفل. لم تكن متأكدة من طلتها حتى آخر لحظة. سرقها الوقت أمام المرآة. تركتها في النهاية بعد أن وعدتها أخيرا بألأ تكشف سرها... فهل تصدق؟

دقت جرس الباب ولكن كانت الموسيقى عالية بالدرجة التي يصعب معها سماعه. ظلت أمام الباب لفترة ليست بقصيرة ثم

أخذت تبحث عن تليفونها لتتصل بأحدهم في الداخل. مدت يدها في شنطتها الحمراء اللامعة الصغيرة والضيقة للغاية من أجل السهرة.

هكذا هن النساء عندما يحين وقت الأناقة والسهرة تضيق كل أشياءهن فجأة. فيمضين وقد انقطعت انفاسهن من ضيق المشدات تحت الملابس، ويمشين وقد تكسرت أرجلهن داخل الأحذية العالية الضيقة. وبالطبع لا تفلت حقيبة السهرة من كل هذا العذاب المسمى بالأناقة!

وفجأة وقعت الحقيبة منها وهي تحاول أن تدس يدها داخلها لتبحث عن تليفونها. وقعت وتبعثرت منها كل الأشياء. يالها من فوضى!

لم يكن سهلا أيضا أن تنزل «فرح» إلى الأرض بفستانها الأسود الضيق لتلملم أشياءها. ولكن لم يكن هناك مفر من النزول ببطء وحذر شديد. ما زلت الموسيقى عالية ولكنها فجأة سمعت صوت الباب يفتح. أخيرا سمعها احدهم. أتلفتت لتنظر إلى الأعلى فوجدت «عمر» أمامها أو بمعنى أصح أمام عينيها بعد أن نزل إلى الأرض ليساعدها في لملمة أشياءها المبعثرة هنا وهناك. تبعثرت اشياءها منذ قليل والآن تبعثرت دقات قلبها بعد أن رأته؛ من سيعتني بهذه الفوضى الأخرى؟

أحمر وجهها خجلا عندما رأته فلم تكن مستعدة بعد لهذا الغزو المفاجيء من عينيه. ضحك هو على خجلها الواضح وعلى إرتباكها وهي تحاول أن تبقى جادة ومتماسكة.

فليس هناك اسخف من أن تداري خجلك أمام شخص تحبه فيعبث بك قلبك فتتورط خجلا ويزداد الأمر سوءا!

– إزيك يا «فرح». قال «عمر» بصوته الرخيم.

وهل كانت بحاجةٍ إلى صوته الآن؟

ألا يكفي الفوضى التي سببتها نظرة عينيه؟

تمالكت نفسها و أنفاسها وقالت:

– إزيك يا «عمر» أنا آسفة أتأخرت... وبقالي شوية و اقفة على الباب بس الموسيقى عالية وماحدش سمعني. قالت «فرح» والارتباك ما زال يغلف صوتها.

لم يقل لها أنه هو الوحيد الذي سمع الجرس وكأنه كان ينتظره. سمعه برغم الموسيقى العالية.

– اتأخرتي ليه؟ فاتك حاجات كتير... ده احنا كنا خلاص حنبتدي العشاء... بس أكيد طبعًا ماما لا يمكن تعمل كده قبل ما تحضر السندريلا. قال «عمر» ممازحًا.

ضحكتْ «فرح» على تشبيهه لها بالسندريلا، وقد راق لها هذا اللقب كثيرًا.

كان الحفل جميلًا ومنظمًا. لم يكن هناك الكثير من المدعوّين؛ بعض أصدقاء العائلة وأصدقاء «عمر» و«كارمن» المقربين فقط. قضت «فرح» وقتًا حميميًا مع طنط «ثريا» التي تنجح دائمًا في احتضان قلبها في كل مرةٍ. هي جزءٌ من حياة والدتها. هي قطعةٌ ثمينةٌ من ماضٍ تحبه. هي الحب الذي جاء لينقذها من قسوة الوحدة.

وبعد العشاء دائمًا ما يبدأ الحفل من جديدٍ. فالأكل يحفز المزيد من الأحاديث التي لا تنتهي أبدًا.

انشغل الجميع و انشغل «عمر» بفرح فقط الليلة. هل كانت جميلةً هكذا من البداية؟ أم لعله اللون الأسود الذي تطل منه قد أضاف لبشرتها البيضاء الناعمة المزيد من الجمال.

هل كان وجهها بهذا الصفاء من قبل؟ هل ملامحها كانت بهذا الدلال من قبل؟

لا يعرف أحدٌ بعد سرَّ ملامح امرأةٍ و اقعةٍ حديثًا في الحب. ستتدلل عليك عيناها العسليتان ثم يأخذك لون الخوخ على خديها وتنتهي على حمرة الكرز فوق شفتيها.

امرأةٌ و اقعةٌ في الحب هي امرأةٌ بطعم الجنون!

وتحت الإضاءة الخافتة على التراس الخارجيّ للمنزل دارت الأحاديث بين الاثنين. كان يأخذها من يديها إلى عالم السينما ثم يتركها تخطفه بعدها إلى السماء حيث عالم الموسيقى. كان حديثًا تسمع ذبذباته السماء وتتر اقص على أنغامه النجوم. لم يكن سحرًا هذا الذي يتحدث به عن السينما، لقد كان يصف الحياة. كانت تنصت لكل كلماته. كان يبهرها حديثه عن السينما ومعلوماته الغزيرة عنها. كان يعرف كيف يسلب عقلها بحكاياته عن هذا العالم الساحر.

حكى لها قصة فيلمه المفضل، لم يكن فيلمًا واحدًا ذلك الذي يحبه، بل مجموعةً لا حصر لها من الأفلام. رص أمامها أرشيفًا كاملًا من الحكايات المثيرة.

حكى لها عن ولعه بالمخرج الإير اني الكبير «عباس كيراستامي» والحائز فيلمه «طعم الكرز» على جائزة السعفة الذهبية من مهرجان «كان» السينمائي عام 1997. الفيلم يصور تناقضات الحياة والموت.

يحكي الفيلم قصة رجلٍ يائسٍ لا يرى إلا كل كآبة العالم من حوله فيفكر في الانتحار. وبينما هو يسعى إلى الموت، يتذوق طعم الحياة عن دون قصد. فيذهب إليها مجدداً.

فكرة الانتحار نفسها هي التي أنقذته من الموت فبالرغم من غرابتها إلا أنها بسيطةٌ للغاية ومع ذلك لم يستطع أن يجد أحدًا لينفذها.

والفكرة هي أن يقوم بطل الفيلم بالتهام كميةٍ من الحبوب المنومة ثم سيلقي بنفسه في حفرةٍ، بانتظار أحدهم، كان قد اتفق معه، من أجل أن يردم عليه التراب ويلقى حتفه هربًا من حياته البائسة. مهمة تبدو سهلة؛ فقط أحدهم سيهيل عليه التراب عندما يغفو فلا يكون هناك مجالًا للرجوع أبدًا.

وتبدأ مهمته في البحث عمّن سيقوم بتلك المهمة، ولكن كل من حوله وبرغم ظروفهم التي تتجاوز ألمه ومعاناته وحاجتهم للمال الذي أغراهم به، إلا أنهم لا يؤمنون بالانتحار كحَلٍّ للتخلص من و اقع البؤس الذي يغرقون فيه.

إنها فكرة الحياة والموت؛ فأى الأمور توصلنا إلى فكرة الموت والانتحار؟

إن الفيلم يحمل أبعادًا فلسفيةً تتجاوز إيران إلى كل مكانٍ وكل بقعةٍ في هذا الكون يزمجربها الهم والتعب والفقروالمرض. يذهب إلى فلسفة الأشياء وفلسفة الألم ومواجهة الحياة وفهم الأشياء وتذوق طعمها فهل يغير الكرز حياة الإنسان؟

طعم الكرز هو طعم الحياة.

مضت ساعتان من السحر مع «عمر». مضى الوقت دون أن يشعرا. مضى الوقت وما زال للسحر بقيةٌ.

لم تكن تعرف إذا كانت مسحورةً به أم بكلماته أم بكلاهما معًا!

ولأن الوقت قد تأخر كثيرًا كان عليها أن تستأذن لتذهب إلى منزلها. ولكن طنط «ثريا» كان لها رأيا آخرًا. فلم تستطع «فرح» أن تفلت اليوم، فقد أصرت أن تبيت الليلة معهم.

من أين جاءت كل هذه الفرحة؛ تلك التي اصطدمت بقلب «عمر» للتوّ؟

سيرى وجهها أول شيء في الصباح. سيستيقظ قبلها وينتظرها على مائدة الإفطار، وبعد ذلك ستكون هناك مفاجأةٌ في انتظارها.

لم تنم «فرح» ليلتها جيدًا، فعندما نغير مكان النوم لا نغفو سريعًا. ولكنّ الليلة لم يكن ذلك فقط هو السبب.

عندما تتغير خريطة دقات قلبك لن يمكنك النوم. عندما يوقظك الحب بين الفينة والأخرى على كلمة حلوة قالها. عندما يأبى عقلك أن يغلق عينيه فيذكرك بتفاصيل لم تكن حتى قد انتبهت إليها في حينها. عندما تتآمر عليك كل الحواس... فمن أين يأتي النوم؟

قفزت «فرح» من سريرها فزعة فجأة. فقد نسيت أن تعطي لعمر هديته. يا لها من بلهاء!!

ستعطيها له بمجرد أن تستيقظ... أو حتمًا هو لم ينم بعد.

لا لن تفعل ذلك بعد منتصف الليل!...

لا تستطيع أن تذهب له الآن في غرفته!

فتحت «فرح» باب غرفتها وتسللت منها بهدوء، أخذت معها الهدية وأخفتها خلف ظهرها؛ سوف تضعها فوق سريره إن لم يكن موجودًا في الغرفة، أو قد تتركها أمام الباب إذا كان بداخلها.

تمنّت ألّا يراها أحد، فحتمًا قد نام الجميع الآن.

تسللتْ على أطراف أصابعها بالبيجاما القطنية الزرقاء التي أعطتها لها «كارمن» لتبيت الليلة. كانت حريصةً ألّا تسبب أي ضجةٍ حتى لا توقظ أحدًا. ووصلت أخيرًا أمام باب غرفة «عمر». كيف ستعرف الآن إذا كان بالداخل أم لا؟ بالطبع لن تغامر وتفتح الباب.

هل يصيبنا الحب بالجنون فنفقد التمييز ونتغاضى مؤقتًا عن أفعالنا الطائشة؟

قليلٌ من الجنون لن يضر أبدًا!

طرقت الباب طرقًا خفيفًا حتى لا يسمعها أحد، ولكن هل سيسمعها «عمر»؟ لم تسمع صوتًا بالداخل فتجرأت وفتحت الباب بحرصٍ يغلفه الخوف!

نادت عليه بصوتٍ خفيضٍ فلم يرد. حمدت الله أنه ليس في الغرفة. وضعت الهدية على السرير والتفتت لتخرج... لتجد «عمر» في وجهها!

ما أجمل هذه الورطة!! ما أجمل هذه الرهبة المفاجئة؟ وما أجمل قلبك عندما تتعثر دقاته!

– عمر... أنا بس نسيت أديلك الهدية اللي جبتهالك... فقلت أعملهالك مفاجأة... أنا آسفة إني دخلت أوضتك كده. قالت «فرح» بصوتٍ يرتعش من الخجل.

لم يكن «عمر» يسمع ما تقوله... كان منبهرًا بها... كان وكأنه يراها لأول مرة... كانت مبهرةً بدون تعقيدٍ... كانت تتلعثم أمامه كطفلةٍ صغيرةٍ... كانت تفوح منها رائحة الخجل ممزوجًا بأنوثةٍ ناعمةٍ.

لم يرد عليها... ظل مبتسمًا فأربكتها نظراته أكثر.

ياله من عنيد... كان يعرف كيف يتلاعب بها ليطيل استمتاعه بحيائها!

– هدية؟ يا ترى فيها إيه؟ تكلم «عمر» أخيرًا.

كانت لكنته الإيطالية تغازل قلبها في كل مرة تسمع صوته، فبرغم أنه يتكلم العربية التي يحبها ويتقنها، إلا أن الكلمات بتلك النكهة الإيطالية تخرج من فمه مرشوشًا عليها بعضٌ من المكسرات وكثيرٌ من السكر.

– انت شوفها... وقولي رأيك بكرة. ردت «فرح» سريعًا في محاولةٍ فاشلةٍ منها للهرب من أمامه ومن غرفته ومن كل هذا الحرج.

– لأ استني أنا حفتحها دلوقتي. قال «عمر» وحسم الأمر.

وأخذ الهدية الصغيرة الموضوعة على طرف السرير و أبدى إعجابه بلون الورق الملفوف به الهدية. كانت علبةٌ صغيرةٌ ورقيقةٌ مثل صاحبتها. تعمّد أن يطيل الوقت وهو يفتحها ليطيل وجودها بجانبه. أخذ يخمن ما بداخلها. لم يفلح في الوصول إلى الإجابة الصحيحة حتى وصل أخيرًا إلى ما بداخلها عندما لمست أصابعه القلادة. كانت قلادة جلدية تتدلى منها دائرة فضية حفرت على جانبيها بعض الكلمات.

«الأمل» باللغة العربية وباللغة الإيطالية: «Sperare».

أبدى إعجابه الشديد بالقلادة، وأعجبه كثيرًا اختيارها للكلمة المكتوبة عليها. قالت له أنها أرادت أن تكون الهدية مميزة ولتذكره بها دومًا. بالفعل أكد لها أنها مميزة للغاية فلم يقتنِ من قبل أي هديةٍ عليها كلماتٌ باللغة العربية.

وقبل أن تستأذن لتهرب من غرفته اقترب منها وهمس قائلًا:

– أنا عندي كمان ليكي هدية.

هل سيتوقف قلبها الآن؟

شعرت «فرح» بفيضان بكل المشاعر التي تعرفها.

فقربه كان مربكا لكل الحواس... كانت تائهةً بين عينيه وصوته وكلماته... وقلبها!

ثم أكمل «عمر» قائلًا:

– بكرة لما نروح السينما حديلك الهدية.

أي سينما تلك التي يتحدث عنها؟ هل هذا موعد غرامي؟

لم يكن «عمر» يملك بعد أي هدية لها؟ لقد اختلق فقط هذه القصة ليقابلها غدًا. وليرد على هديتها بهديةٍ تليق بها وتليق بقلبها.

وقبل أن تستأذن لتهرب من غرفته... استوقفها مداعبًا:

– شكرًا على الهدية... والبيجاما حلوة عليكي.

ضحكت «فرح» بخجلٍ من إطرائه... وخرجت هاربةً قبل أن يورطها قلبها أكثر من ذلك.

لم تكن تعرف أنها بهذا الجنون من قبل. من أين جاءتها هذه

الجرأة لتتسلل إلى غرفته ليلا؟ من أين جاءتها الشجاعة لتفعل كل هذا؟ من أين جاءتها كل تلك القوة لتقف ثابتةً أمام عينيه؟

من أين يأتي الجنون؟

من أين يأتي الحب؟

يالها من ليلةٍ طويلةٍ تلك التي تسهر فيها أنت وضجيج قلبك!

نامت «فرح» أخيرًا بعد أن تذكرت كلمات أمها في الرسالة الأخيرة. هل ما زالت ترى العلامات بوضوح؟ هل ستسلك طريق القلب لتصل إلى نهاية الطريق؟

كانت الصورة كل يوم تتضح قليلًا. أو هكذا يبدو!

كانت «فرح» تقابل «آدم» في التدريبات الموسيقية ويبدو أنه لم ولن ييأس من التودد إليها بصورةٍ أو بأخرى. ويبدو أيضا أن الوقت لا يهمه، فهو ما زال ينتظر تفسيرًا لعدم ردها عليه حتى الآن. كان يشعر فقط أنها تحتاج للمزيد من الوقت لكي تتأكد من حبه لها، لم يكن يعرف أنها تريد أن تتأكد من حبها لعمر!

مشاعرها تجاه «آدم» لم تكن مثل تلك التي تكنها لعمر. ولكن بالرغم من ذلك فقد كانت لا تخفي إعجابها بعفويته وطيبة قلبه والأهم من كل ذلك حبه لها.

فالمرأة يجذبها جنونك بها حتى لو لم تكن تفكر بك من قبل، فيكفي هوسك بها ليميل قلبها... ولذلك إياك أن تيأس!

كان «آدم» مثالًا للعاشق العاقل؛ ذلك الذي يحبك على نارٍ هادئة... واثقًا في حبه لدرجة تجعله ينتظر أن تنضجين ببطءٍ في

حضن قلبه!

في ذلك اليوم، كانت تنتظر أن يأتي المساء سريعا. إنه موعدها اليوم في السينما مع «عمر». لم تعرف بعد الفيلم الذي ستشاهده؛ ولكن هل يهم؟

ثم جاءتها هذه المكالمة من «آدم» التي يدعوها فيها على العشاء في مطعمٍ جديدٍ يقدم الأكلات التركية التي تحبها كثيرًا. كان متحمسًا جدًا وهو يصف لها جمال المطعم وحلاوة المأكولات التي جربها بنفسه قبل أن يدعوها إليه. لم تكن «فرح» أبدًا بحاجةٍ للمزيد من الحيرة.

اضطرت للاعتذار بعذرٍ واهٍ. قالت له أنها متعبة ووعدته بأن تقبل دعوته في يومٍ آخر يحدده هو. كانت تعرف كم أحبطه رفضها. لماذا عليه أن يتحمل كل هذا الإحباط؟ لماذا عليه أن يتقبل كل هذا الرفض؟

مسكينٌ ذلك الحبيب الذي لا يملّ من الرفض ولا توقفه الإحباطات المتكررة... فهل أصبح يتلذذ بعذابات الهوى أم هل باتت تستهويه إخفاقات الحب؟ أم لعله فقط يلعب دور العاشق المجنون..

وبجدارةٍ؟!

وجاء المساء وجاء معه «عمر». ذلك المتأنق الإيطالي بلمحةٍ شرقيةٍ صارخة الحيرة. فلون شعره الأسود المنسدل بعشوائية على جبهته كان دائما ما يعقد صفقةً ناجحةً مع عينيه الخضراوين فيطيح بقلب «فرح» في الحال. كان يملك جسما رياضيا ممشوقا يزيده هيبةً وجاذبيةً وإثارةً، وبرغم فرق الطول بينهما إلا إنها كانت تحب طول

قامته لأنه يذكرها بأبيها.

وصلت «فرح» قبله إلى السينما. وقفت حائرةً هناك تنتظره. كيف نسيَت حتى أن تسأله عند أي قاعةٍ عليها أن تنتظر، يبدو أن الفيلم كان آخر اهتماماتها!

راقبها من بعيدٍ وهي حائرةٌ تتلفت يمينًا وشمالًا. كانت تقف كالقطةِ الصغيرةِ التي لا تعرف الطريق. كان يحب حيرتها وخجلها ورقتها الناعمة كنعومةِ القطط. كيف تسللت هذه القطة لقلبه؟

وفي السينما بدأ العرض وبدأت معه أشياءٌ أخرى!

وفي السينما؛ انشغل الجميع بأحداث الفيلم، وانشغل هو بوجودها بجانبه بهذا القرب. كان قلبه يحرضه عليها. هل يستطيع أن يقاوم رائحتها، قربها، ضحكاتها؟ هل هذه الموسيقى المصاحبة للفيلم أم إنها أوركسترا قلبه المشتاق؟

كان الله في عون قلب أحب وهوى!

وفي السينما أيضا؛ انشغلت هي الأخرى بوجوده بجانبها بهذا القرب. كانت تقاوم رغبتها في النظر إليه دون أن يشعر. ثمة شيء يجري داخل قلبها. هل هذه شرارة الحب تتوقد نارها أم أنها فقط حبات «الفشار» الساخنة التي تأكلها؟

كانت موسيقى الفيلم صاخبةً؛ فالحرب بينهما دائرةٌ منذ زمنٍ. دقّت الطبولُ معلنةً بدء المعركة.

متى ستسقط حصونها المنيعة؟

متى سترفع الراية البيضاء؟

متى ستعلن استسلامها أمام غزو قلبه الغاشم؟

كان يحكي لها بصوتٍ خفيضٍ معلوماتٍ عن الأبطال وعن الفيلم. كان يضحكها تارةً وتستمع له بجديةٍ تارةً ويداعب قلبها تارة أخرى. كان مولعًا بكل ما يحمله هذا العالم الساحر داخل الشاشة. يبدو أنها قد وقعت معه في حب السينما. فهل ستفلح هي في أن توقعه في حب الكمان؟

ولكن القدر في هذه الأثناء كان يعد لهما مفاجأةً من العيار الثقيل!

بعد انتهاء الفيلم أخذها «عمر» لترى الهدية التي اشتراها لها. تعجبت في البداية أنه لم يحضرها معه، ولكنها ستعرف الإجابة حالًا!

أوقف سيارته على جانب الطريق بعيدًا قليلًا عن المحل الذي سيأتي به بالهدية. تركها في السيارة وذهب بمفرده. انتظرته وكلها شوق لتعرف ما هي المفاجأة التي يعدها له ولا يريدها حتى أن ترى اسم المحل. جاء «عمر» أخيرًا وهو يخفي شيئا خلف ظهره. وداخل السيارة أخرج علبةً متوسطة الحجم؛ ليست علبةً إنها قفصٌ صغيرٌ لحفظ الحيوانات الأليفة. إنها قطةٌ صغيرة!

صرخت «فرح» من فرحتها بهذا الكائن الصغير الجميل. هو يعرف كم تعشق القطط والكلاب، ويعرف أيضا أنها تمتلك كلبين في مصر وقد فكر فعلًا بشراء جروٍ صغيرٍ بدلًا من القطة، ولكن يبدو أن «عمر» لديه أسبابًا أخرى وجيهة لشراء القطة.

قال لها إن القطة تذكره بها فهي مثلها رقيقةٌ، ناعمةٌ، تبحث عن الحب والأمان و أيضا تمتلك قوامًا صغيرًا مثل قوام القطط. قال لها

أنه متأكد أنها ستهتم بقطته جيدًا.

داعبت كلماته قلبها مباشرة تماما كمداعبة هذه القطة الصغيرة لأصابعها وهي تمسك بها.

يبدو أن «عمر» محقًا؛ فالمرأة من نوعية القطط تحمل مواصفاتٍ خاصةٍ ومميزةٍ جدًا تجذب الرجل!

فالمرأة القطة هي المادة الخام للأنوثة. هي قطعة الصلصال التي يمكنك تشكيلها «على مزاجك»... ولكن عليك أن تحترس، فللقطة الوديعة مخالب دائمًا!

تركا القطة مؤقتًا مع البائع داخل المحل لأن الليلة لم تنتهِ بعد. فقد حان وقت الطعام.

كان مطعمًا صغيرًا يعد الأكلات السريعة. لم يكن «عمر» يشعر بالجوع ولكنه لن يتركها الليلة تهرب بهذه السهولة.

وفي المطعم كان القدريعد لهما مفاجأة!

إنه «آدم» على الطاولة المقابلة لهما!

إنه بلا شكٍ حظًا تعيسًا جدًا ذلك الذي يفسد أمسيةً جميلةً كهذه!!

رأته «فرح» فتسمرت عيناهما وكأنّ أحدهما قد أوقف المشهد كما في الأفلام. رأت نفسها في عينيه كاذبةٌ، مخادعةٌ ولعوبٌ في لحظةٍ واحدةٍ.

اقترب «آدم» من الطاولة. اقترب و اقتربت معه الصدمة. اقترب ورحب ليس بها؛ رحب بعمر!

كان جاره منذ زمن بعيد. لم يكن يعلم شيئًا عن معرفته بفرح، حتى أنه لم يره ليلة الحفل الموسيقيّ، فقد هرب «عمر» مسرعًا، ولكن كيف لم يعرفه «عمر» حينها؟

يبدو أن الصدمة كانت كبيرة ليلتها حتى أنه لم يهتم برؤية ذلك الرجل الذي يتقدم لحبيبته. ولكنه تذكره الآن جيدًا إنه هو... هو من ينافسه في حبها؟

كانت «فرح» في موقفٍ لا تحسد عليه. فكيف ستبرر الآن كذبها لآدم؟ ولكنها لم تعرف أن «آدم» لن يفوّت هذه المرة ويتعذب بمفرده.

– انتِ أحسن دلوقتي يا «فرح»؟ يظهر كان عندك خطط تانية الليلة. أو يمكن ما بتحبيش الأكل التركي!! أشوفك بكرة في المعهد.

رمى «آدم» قنبلته ورحل وتركهما يشتعلان بالنار خلفه!

إذن لم ينته الأمر بعد. لم ينته ما بينهما بعد. ما زال «آدم» يحبها. ما زال متمسكا بالأمل بأن ترضى به. ولكن ماذا عنها هي؟

كان لابد وأن يسألها «عمر» السؤال المعلق بذهنه منذ يوم الحفلة الموسيقية. حكى لها عما رآه ليلتها. حكى لها كيف ابتعد وكيف كان ينتظرها ليعرف هل و افقت أم لا.

تفاجأت «فرح» بكل ما كان يخفيه في قلبه طيلة هذه الفترة. ولكنها عرفت الآن أمرا واحدا غير قابل للتفكير أو الإنكار. «عمر» يحبها!

لقد اعترف لتوّه دون أن يدري. لقد أقر أن قلبه كان ينتظرها ولم يمل.

لقد قالت أفعاله كلها «أحبك» دون أن ينطق بكلمةٍ واحدةٍ. لقد أصبح لكل ما بينهما تفسيرٌ جديدٌ. لقد أصبح لكل كلمةٍ قالها من قبل معنًى جديدًا. أصبح كل ما كان بأمر الحب!

كم أحب تلك اللقطة التي يقول فيها الحب كلمته الأخيرة. اللقطة التي يتوقف عندها الوقت وتدور بك الأرض فلا تعرف إذا كنت ستهوى أم ستطير في سماء الهوى!

قالت «فرح» له كل شيء. قالت له كل ما كانت تخفيه حتى عن قلبها. اعترفت له ولنفسها لأول مرة. قالت له إنها لم تقبله في حينها ولن تقبله الآن.

كان الوقت مناسبًا جدًا لكي يطلق سراح حبه بعد أن حصل قلبه أخيرًا على حكم البراءة. ذلك المسكين المحبوس منذ شهورٍ طويلةٍ على ذمة التحقيق في قضية الحب!

ولكن... لم يحن الوقت بعد!

وفي اليوم التالي في المعهد كان عليها أن تواجه «آدم». لم تكن تقصد أن تجرحه بهذا الشكل أبدًا بالأمس. لم تكن تقصد أن تكذب عليه. إنه تخطيط القدر لتظهر الحقيقة!

– أنا آسفةٌ يا «آدم»!

قالت «فرح» جملتها الصغيرة هذه لتنهي بها كل شيء!

لم تكن تعرف حقًا عن أي شيء تعتذر. فهل لأنها تركته ينتظر كل هذا الوقت؟ هل لأنها كذبت عليه بالأمس؟ هل لأنها لا تحبه فعلًا؟ أم لأنها تحب «عمر»؟

لم يكن «آدم» بحاجةٍ لمزيدٍ من التفسير ليفهم أنها لا تريده. لم يرد أن يطيل عليها هذا الحرج كثيرًا فانصرف بهدوءٍ.

وما زلت لا أحب النهايات ولكن هذه الحياة!

تنتهي الحكايات لتحل محلها بدايات جديدة ونهايات جديدة... وتستمر الحياة!

الرسالة الثامنة

(الأمل)

وتبدأ صفحةٌ جديدةٌ من صفحات العمر. لم تكف «فرح» يومًا عن كتابة مذكراتها كما نصحتها والدتها الراحلة. لم تكن تدون فقط أحداث الأيام، كانت تكتب مشاعرًا لم تظهر. كانت تدون لحظاتٍ خاصةٍ مرت على قلبها لا تريد أن تنساها. كانت تكتب ما لم يمكن البوح به ولا يمكن نسيانه.

وعلى الضفة الثانية من الحياة كان «عمر» ينتظر. كان ينتظر «فرح» بكل دقات قلبه المشتاقة منذ أن رآها. لم يضع كل هذا الوقت هباءً. فعمر لم يكن من ذلك النوع الذي يغامر بقلبه دون أن يعرف على أي شاطئٍ سيصل قاربه.

ومضى وقتًا لا بأس به قبل أن يتفق «عمر»على سفرةٍ جديدةٍ من أجل تصوير فيلمه في مدينة «فينسيا». لم يعد «عمر» مفهومًا. تارةً يقترب ويحن وتارةً يبتعد ويلازم الصمت. هل فتر الحب سريعا؟ هل كانت قصة حب قصيرة؟

بعض العلاقات يأكلها الصدأ. تلك التي تتلعثم عندها المشاعر فلا تعد تعرف هل تحبه أم تحب قربه؟ هل تحبه أم تعتاد وجوده؟ هل هذا حب عمرك أم أنها فقط حكاية حبٍّ عابرة؟

ياله من مأزقٍ هذا الذي يضعنا فيه الحب!

إنه منتصف شهر نوفمبر وقد حلت نسمات الشتاء البارد. يقال أن من لا يعرف الحب يخاف الشتاء.

وفي فصل المطر والبرد استعد دائمًا بمظلةٍ من الحب تدفئ بها ليالي الشتاء الطويلة.

انشغلت «فرح» بين العمل والموسيقى، فبعد سفر «عمر» منذ أكثر من شهرٍ لتجهيز فيلمه الجديد في «فينسيا» وحياتها قد أصابها الملل. فلم تجد إلا العمل لتنهك جسدها من التعب فلا يجد وقتًا ليفكر به. أما القلب فلا يزال معلقًا بحبال الهوى!

جلست «فرح» في المقهى المقابل لمعهد الموسيقى في انتظارها. كانت تحب ذلك المقهى كثيرًا.

نتعلق أحيانًا بالأماكن التي نرتادها لتعيد الذاكرة نفس المشاهد ويعيد القلب نفس المشاعر ونجلس في انتظار الغائب لعل الزمن لم يمضِ وساعة الحائط تكذب والتاريخ المكتوب على الجريدة مجرد غلطةٍ مطبعيةٍ.

جلست على نفس الطاولة التي كانت تجلس فيها مع «عمر» عندما كان ينتظرها حتى تنتهي من دروس الكمان. كانت تحب وجوده في حياتها. كانت تنتظر أن تكتمل الحدوتة التي بدأها قلبها. هل كان كل ذلك مجرد أوهام؟ ربما... ولكنها أبدًا لن تكذّب قلبها. تذكرت كلمات أمها في الرسالة الأخيرة: يجب أن تتبع قلبها حتى النهاية.

– صباح الخير يا حبيبتي. قالت طنط «ثريا».

– أهلًا يا طنط صباح النور... إزيك. ردت «فرح».

– أولًا أكيد إنتي عارفة أنا حبيت أشوفِك النهاردة ليه؟! قالت

«ثريا»؟

– رسالة من ماما؟ ردت «فرح» بصوت ينقصه الشغف مثل كل مرة.

– أيوة... بس الأول طمنيني عليكي... إنتي ليه مش فرحانة زي كل مرة؟ سألتها «ثريا» بقلق.

– مش عارفة!!... أنا بقيت مش عارفة أي حاجة... أنا حاسّة إني ماشية في طريق مرسوم... والطريق طويل أوي... وخايفة أتوه... ساعات باحس إني خلاص مش عايزة رسايل تاني... وفي نفس الوقت مش عارفة حعمل إيه لما تخلص الرسايل! ردت «فرح» بصوتٍ يملؤه الحيرة.

– يا حبيبتي كلنا ماشيين في الحياة زي ما القدرمحددلنا... الحياة زي النهر، مش حنقدرنلمس نفس المياه مرتين، لأن المياه المتدفقة اللي بتعدي جنبنا مش بترجع تاني أبدًا... علشان كده استمتعي بكل لحظة في حياتك الحلوة والمرة... الحلوة حتخلص والمرة مسيرها حتعدي. قالت «ثريا».

– الدنيا بتبعتلك الرسايل دي... كل رسالة في وقتها المناسب... المحظوظين بس هما اللي يفهموا رسايل الحياة... . خلي بالك مش كل الرسايل بتكون مفهومة! أردفت «ثريا».

أجمل الرسايل تلك التي تصلنا بعلم الوصول. تلك التي تختارك بعنايةٍ... تلك التي تأبى أن تكون إلا لك... ومهما طال الزمان ستبحث عنك وتجد طريقها إليك.

– طنط... كنت عايزة أسألك على حاجة من زمان... إنتي عارفة

كل رسالة فيها إيه؟ يعني أكيد ماما قالت لك عن كل الرسايل دي... مش كده؟ سألت «فرح» بحماسٍ.

– أيوة طبعا أنا عارفة... كل رسالة كنا أنا وماما بنتكلم فيها كتير أوي... كنت مبهورة بأفكار الرسايل وترتيبها... فيها كل معاني الحياة... أنا اتعلمت من ماما كتير أوي يا «فرح»... «فريدة» طول عمرها عندها رؤية وتصوّر مختلف عن الحياة... الله يرحمها. ردت «ثريا» وقد أفلتت من عينيها دمعة لم تنجح أن تمنعها من السقوط.

وفوق السرير مثل كل مرة، استعدت «فرح» لاستقبال كلمات من عالمٍ آخر. كلماتٌ كُتبِتْ في زمنٍ آخر. كُتِبتْ من أجلها هي فقط.

كانت تسرح بخيالها كل مرة فترى أمها المريضة وهي تعاند المرض وتراوغ الألم فتكتب!

كانت تهرب من الألم بالكتابة. تذكرت «فرح» جيدًا كل الأيام التي كانت تطلب منها أن تعد لها جهاز الكومبيوتر لتكتب، لم تكن تعرف أنها تكتب لها. لم تكن تعرف أنّ تلك الكلمات هي آخر ما ستقرأ من أمها. لم تكن تعرف أنها تحبها كل هذا الحب!

كم أشتاق إليكِ يا أمي!

وزارها الحلم من جديدٍ. حلم النافورة والعملات المعدنية والصوت الذي يحدثها ولا تراه.

يقال أنّ أحلامنا المتكررة تحاول أن توصّل لنا رسالة ما... فحذاري أن تهملها!

استيقظتْ «فرح» على صوت «كوكي» قطها الصغير الجائع؛ فقد غفتْ بالأمس ونسيت أن تطعمه. بل إنها غفت حتى قبل أن تقرأ

رسالة أمها!

الرسالة الثامنة...

حبيبتي الغالية...

لعلك تتساءلين كيف جاءتني الأفكار التي تحتويها كل رسالة. رسائلي تحوي معاني الحياة، كل ما نحتاجه لنمضي في هذه الدنيا. قد تختلف شخصياتنا. قد تختلف ظروفنا. قد يختلف تصورنا للحياة ولكن في النهاية سنجتمع كلنا على حياةٍ واحدةٍ نعيشها جميعًا بحلوها ومرها.

هل تعلمين يا صغيرتي كم كنت أتمنى أن تصلني أنا هذه الرسائل؟ ولكنك أكثر حظًّا مني؛ فقد وجدت من يرسلها لكِ مبكرًا!

لا أعرف لماذا أرغب الآن في أن أحكي لكِ قصةً مررت بها وقد غيّرتْ مجرى حياتي تمامًا. لا أتذكر أنكِ تعرفين من هو «عادل»؟ إنه قصة حبي الأولى قبل أن أقابل والدك!

لا أعرف حقًّا كيف لم أخبرك عنه، ولكن أتعلمين أنكِ عندما تسمحين لذاكرتك أن تغطس لتمدك ببعض المعلومات القديمة فلن تنسى أن تجلب معها بعض المشاعر المدفونة التي لن تتوقعي أبدًا أنها ما زالت حية!

«عادل» هو الأخ الأكبر لثريا. وقع في حبي منذ اللحظة الأولى عندما رآني وأنا أزورهم في منزلهم في المعادي. كنت في العشرين من عمري. كان وسيمًا يحمل ملامح النبلاء الشامخة. لا أعرف لماذا كان يذكرني دائمًا بعمر الشريف في فيلم لورانس العرب؟

كان يعمل طيارًا. لم نكن نلتقي كثيرًا بسبب ظروف عمله، ولكن المرات القليلة التى كانت تجمعنا كانت كفيلةً بأن تأخذ عقلي وتغرقنا سويًا في بحر الحب.

لم تكن «ثريا» على علمٍ في البداية بهذا الحب الذي عصف بقلبي لأخيها، ولكن الأمر لم يكن ليخفى كثيرًا.

فكيف يداري العشاق حبهم؟ ستتآمر كل الأشياء لتفضحهم. ستفلت منهم كلمةٌ، ستفضحهم حركةٌ أو همسةٌ، ولو نجحوا في إخفاء كل ذلك فحتمًا سيتم القبض عليهم متلبسين بنظرة عين غارقةٍ في خمر الحب!

لقد عشت قصةً جميلةً ولكنها لم تكتمل. لم أكن أتخيل أنني سأفقد حبًا اعتقدت يومًا أنه حب حياتي. تعاهدنا على الإرتباط في إجازة الصيف الآتي فبعد أن علم الجميع بقصة حبنا لم يعد هناك مجالًا للتأجيل. لم أعترف يومًا لأحدٍ بهذا الحب الذي مر يومًا كالنسيم على قلبي. لم يمهلني الوقت لأعيشه حتى النهاية ولا حتى لأحكيه قبل أن تأتي النهاية.

ولكنني أرغب كثيرًا الآن قبل أن تنتهي أيامي في الحياة أن أحكي لكِ عن هذا الحب. لعلكِ تتساءلين كيف سأحكي لكِ عن حبٍ قديمٍ وأنتِ تعرفين جيدًا قصة عشقي لأبيكِ؟ ولكن لحكايتي مغزى قد يلهمك حين تفقدين الأمل يومًا!

كان «عادل» يأخذ قلبي معه في كل مرةٍ يطير فيها بالطائرة. كان يسافر كثيرًا ولقاءاتُنا لذلك كانت قليلةً ومحددة المواعيد، ولكن برغم البعاد كان لهذه اللقاءات طعمٌ مختلفٌ في كل مرة.

كنا نلتقي بكل شوق العاشقين؛ ذلك الشوق الذي تتحول فيه الدماء في العروق لبحرٍ هائجٍ بمدِّه وجذره، يتلاطم موجه داخل قلبك لترهقه لوعةٌ ويقتله اشتياقًا.

لم أكن أتخيل أنني سوف أكون زوجةً إلا له. كان حبًا من نوعٍ خاصٍ جدًا. حدث كل شيء دون ترتيب، ودون سابق إنذار. لقد وقعنا في الحب وغرقنا فيه حتى أذنينا. كانت معه كل بدايات الأشياء الجميلة، تلك البدايات التي تختبرها كل أنثى لأول مرةٍ، فبعد الدقة الأولى للقلب لا يعود شيئًا أبدًا كما كان.

للبدايات دائمًا سحرٌ لا ينتهي... وخاصةً بدايات السقوط في الحب؛ تلك التي ينجرف فيها قلبك لأول مرة دون أن يستأذن؛ تلك التي يتوقف فيها عقلك دون علمك؛ تلك التي ينقلب فيها حالكِ دون سابق إنذارٍ.

تظل المرأة عذراء حتى تتزوج ولكنّ مشاعرها تفقد عذريتها بمجرد أن تقع في الحب!

علمني حبه كل الأشياء الجميلة. رأيت الدنيا كما لم أرها من قبل. رأيت فيه الرجل الذي كنت أحلم به. باختصارٍ كان كل الأمان أن أبقى بجانبه، حتى جاء هذا اليوم!

إنه اليوم الذي غير حياتي إلى الأبد. إنه اليوم الذي لم أحكِ عنه لأحدٍ من قبل. إنه اليوم الذي لم أرغب قطّ في تذكره. يومَ سافرَ ولم يعدْ!

كان في إحدى سفراته والتي استغرقت شهرًا في رحلات طيرانٍ طويلةٍ في أمريكا. وقبل سفره كنا قد حددنا موعدًا لخطبتنا. وفي

صباح يوم الجمعة الحزين وصلتني رسالةٌ منه. قال فيها إنه لن يعود. قال فيها أنه لن يلتزم بوعد حبه معي.

قال إنه لن يأتيَ فقط، ثم اعتذر!

لم أستوعب الرسالة من قراءتي الأولى. ظللتُ أركض بعينيّ شمالًا ويمينًا، إلى أعلى قليلًا وإلى الأسفل قليلًا ربما فاتني حرفًا أو أغفلت كلمة. لم أستوعب أن هذه الرسالة من «عادل» حبيبي! كيف هان عليه حبنا؟ كيف هنت أنا عليه؟ كيف سينساني؟ أو هل نساني بالفعل؟

بحثتُ من جديدٍ في كل دهاليز الرسالة لعلني أصل لتفسيرٍ لما يقوله، وياليتني ما وصلت!

لقد وقع في حبِّ امرأةٍ أمريكيةٍ وتواعدا على الزواج. لم أعرف من أين جاء بكل هذه القسوة لكي يصفعني ثانية؟ ويعترف بكل وقاحةٍ بحبه الجديد! لا أعرف من أين أتته هذه الجرأة المقيتة لكي يعلن عن وجود حبٍ جديدٍ في حياته وهو على ذمة حبي أنا؟

انهار العالم من حولي بعد هذه الرسالة. لم أعد أرغب حتى في العيش. فكرت أن أنهي حياتي كثيرًا، ولكن تلك الفكرة لم تخرج عن حيز عقلي. كانت تلك أول صفعة في حياتي. لم أفقد وقتها حبيبي ولكنني فقدت روحي أيضًا!

لن أطيل عليكِ أكثر من ذلك؛ فتلك القصة كانت مجرد محطةٍ في حياتي وقد مضيت بعدها بقطار الحياة لمحطةٍ أجمل؛ بل وأجمل من كل ما سبق!

لقد قابلت والدك بعدها بسنة، وأنتِ تعرفين الباقي!

تعلمك الحياة دروسًا مدفوعة الأجر... ولكى تتعلم يجب أن تدفع الثمن!

حبيبتي الغالية...

تجربتي هذه تقول لكِ أن الأمل هو الحياة. فعندما فقدت الأمل كدت أن أفقد حياتي.

لن تضحك لكِ الحياة كل يومٍ، ولهذا إياكِ وأن ينفذ مخزونكِ من الأمل مهما حدث. تعلقي بكل ما يجلب لكِ الأمل وابتعدي عن كل ما يجلب لكِ اليأس.

تقربي من هؤلاء القادرين على إنعاش الأمل في صدرك من جديد؛ فهم يملكون جهازًا أشبه بجهاز الصدمات الكهربائية التي تنعش القلب المتوقف.

ربما توجعك الصدمة ولكنها ستحييك من جديدٍ!

في رسالتي القادمة ذكريني أن أحكي لكِ عن قصة حبي الخالدة لأبيكِ... أعرف أنكِ تعرفينها ولكنني أحب أن أوثقها هنا في رسائلي إليكِ حتى لا تضيع... ومن يدري فربما أحكي لكِ أشياءً لم تعرفينها عن حبنا من قبل!!

إمضاء / ماما

حتى يحين اللقاء...

هل جاءت رسالة أمي في وقتها مثل كل مرةٍ أم أنني فقط أتوهم ذلك؟

تذكرتْ «فرح» فجأةً تلك القلادة التي أهدتها لعمر والمكتوب

عليها باللغة الإيطالية «الأمل»... هل ما زال يرتديها؟

وتمضي الأيام بنا ولا نعرف أي طريق سنسلك؟ ويمضي العمرولا نعرف كم تبقى لنا لنحلم؟

وهل يجب أن نتوقف يومًا عن الحلم؟

اشتد برد الشتاء مع قرب أعياد رأس العام والكريسماس.

ستحل سنةٌ جديدةٌ قريبًا وستحل معها أمنياتٌ وأحلامٌ جديدةٌ.

«عمر» المنشغل والمسافر دائمًا سيأتي ليلة رأس السنة. قضى معظم السنة الماضية بعيدًا عنهم. أخذ فيلمه الجديد وقته كله، ولكن هل أخذ عقله أيضًا؟ وماذا عن قلبه؟

هل ستكون بداية العام بدايةً لقصةٍ جديدة؟

فأنتم تعلمون كم أحب البدايات!

التجهيزات النهائية لليلة رأس السنة أوشكت على الانتهاء. تزينت الأشجار بألوان الحياة كلها.

أحب شجرة الكريسماس كثيرًا فأراها امرأةً جميلةً تتزين وتتأنق من أجل السنة الجديدة. أراها متفائلةً محبةً للحياة. تضع الكرات من كل الألوان. كل لونٍ يحكي حكايةً. لونٌ فاتحٌ وآخر غامقٌ، لونٌ تحبه ولونٌ تكرهه. هكذا هي الحياة!

يبدو أن «ثريا» تحب ترتيب الحفلات كثيرًا. كانت تهتم بأدق التفاصيل لحفلٍ أنيقٍ تودع به السنة وتبدأ به عامًا جديدًا.

غاب «عمر» عنهم قرابة الأربعة شهور. لم تسمح ظروف عمله أن يأتيَ حتى للزيارة إلا قليلًا. وفي تلك المرات القليلة لم يتسنّ له رؤية

«فرح» التي انشغلت هي الأخرى فيما بين عملها والموسيقى.

يقولون إن البعيد عن العين بعيدٌ عن القلب، و أنا أرى أن البعيد عن العين يظل مكانه في القلب كبيرًا. يكون اللقاء بعد الغياب حارًا كحرارة الطقس في ليالي أغسطس الرطبة. لا يطفئ حرارته إلّا سلامًا بطعم الحنين ونظرة شوقٍ جائعةٍ ثم كلامًا بر ائحة سنين اللهفة!

تشعر «فرح» بسعادةٍ كبيرةٍ، وراحةٍ لا تعرف مصدرها بعد رسالة أمها الأخيرة؛ فهي لم تفقد الأمل بعد في حب «عمر» لها. كانت تحاول أن تقنع نفسها أن كل هذا الغياب بسبب ضغوط عمل؛ فأصبحت تكتفي بمحادثةٍ سريعةٍ على الهاتف، وحتى مجرد رسالةٍ قصيرةٍ منه كانت تصبرها قليلًا. بالطبع لم يكن هذا كافيًا أبدًا، ولكنها كانت تشعر بشكلٍ أو بآخرٍ أن حبها في قلبه لم يمسسه أحدٌ.

كان حفلًا أنيقا ًكالعادة ومقتصرًا على الأصدقاء والأقارب مثل كل مرةٍ. دائمًا ما تجلب إجازات نهاية العام كل الأقارب وكل الأصحاب الذين فرقتهم الأيام والأماكن. يأتون لمقابلة أناسٍ فقدوا التواصل معهم لشهورٍ أو حتى لسنينٍ طويلةٍ. إنها فقط محاولةٌ منهم لاسترجاع زمنٍ فات ولمّ شمل عائلةٍ اشتاقوا لوجودهم فيها كثيرًا.

كانت «فرح» تنظر تارةً إلى الباب وتارةً أخرى ترمق ساعة الحائط. كانت تر اقب عقارب الساعة وترجوها سرًا أن تمضي سريعًا وتأتي به. ومرت ساعتان كاملتان قبل أن يسمح القدر باللقاء المنتظر.

– يا جماعة تعالوا كلكم عايزة أقولكم على مفاجأة! كان هذا صوت «ثريا» تنادي على الحضور من بعيدٍ.

التفت الجميع إليها ونظروا بشغفٍ إلى باب المنزل حيث تقف

«ثريا». كانت تحتضن بكل حبٍ رجلًا وسيمًا للغاية. شعره الرمادي الناعم وتجاعيد وجهه الخفيفة تشي بعمره. يبدو في الخمسين من عمره ويبدو أيضًا أنكم تعرفونه!

نظرت «فرح» بتركيزٍ شديدٍ تنتظر أن تعلن طنط «ثريا» عن المفاجأة.

– أقدم لكم «عادل» أخويا حبيبي. قالت «ثريا»:

تسمَّرت عينا «فرح» عليه وتذكرت كل شيء في لحظةٍ واحدةٍ. تذكرتْ كلمات أمها في الرسالة الأخيرة.

ها هو يقف أمامها. الحب الأول لأمها!

يأتيك القدر أحيانًا بشخصٍ مجهولٍ لم تره من قبل ولكنك سمعتَ عنه من الحكايات ورسمتَ له صورةً في خيالك وفجأة تراه يقف أمامك بشحمه ولحمه... لا تخف... إنك لا تحلم!

لم تعرف أين تختبئ من كل هذا الحشد الذي تجمع حول «عادل» للترحيب به. لم تعرف لماذا لم تستطع أن تبعد عينيها عنه. لم تكن تستطيع إلا وأن تتخيل كل كلمات أمها عنه. كانت تراه أمامها منذ أكثر من عشرين سنة وهو و اقعًا في حب أمها حبًا لم تستطع أن تنساه حتى لحظات عمرها الأخيرة.

عندما تقترب من النهاية يمر شريط حياتك أمام عينيك... يذكّرك الحنين بحبٍّ قديمٍ ويردد عقلك كلماتٌ كنتَ تعتقد أنك نسيتها... أما قلبك فلن يتوان عن النبض الممزوج بالألم والشوق.

وهذا الذي رمت به الذاكرة في وجهك الآن هو فقط كل ما نقش بعنايةٍ ودقةٍ داخل خلايا قلبك!

– تعالي يا «فرح»... تعالي أعرفك على «عادل». قالت «ثريا»:

– عادل أقدملك «فرح» بنت صحبتي «فريدة» الله يرحمها... إنت كنت تعرفها من زمان. أردفت «ثريا»:

تبدلت الابتسامة فوق وجه «عادل»، وتحولت لاندهاشٍ كبيرٍ لم يخفَ على أحدٍ. لم يكن يعلم هل يرحب بالفتاة التي تقف أمامه؟ أم يعزيها في وفاة والدتها؟

تلعثمت الأفكار في عقل «عادل» وتسمرت عيناه محدقةً في وجهها وتوقف الزمن لثوانٍ تبدو كسنينٍ من العمر، ولكنه لن يترك يدها ممدودةً إليه أكثر من ذلك.

– أهلا يا حبيبتي... البقاء لله... أنا آسف! قال «عادل»:

نظرت إليه متعجبةً وهي تسترد يدها من يده بعد السلام. هل قال آسف للتو؟ هل يتأسف لي أنا؟ أو لم تكن أمي هي من تستحق هذا الاعتذار؟ لماذا تركها تتعذب بمفردها؟ لماذا تخلى عنها؟ هل أقول له أنني أعرف حكايتهما؟ هل أطلب منه تفسيرًا لما فعله بأمي؟ وهل سيعترف لي أنا بعد كل هذه السنوات؟

وفي وسط ضجيج أفكارها شعرت بيدٍ تربّتْ على كتفها. إنه «عمر»!

– كل سنة و انتي طيبة يا «فرح»... هابي نيو يير. قال «عمر»:

– «عمر»! إزيك... هابي نيو يير. ردت «فرح» سريعًا بقليلٍ من الارتباك وكثيرٍ من الاشتياق. ردت بسرعةٍ حتى لا يخونها لسانها فتكمل وتقول له كم كانت تفتقده!

– على فكرة وحشتيني جدًا. قالها «عمر»:

احمرّت وجنتيها ولم يكن هناك مفرٌّ إلّا وأن ترد عليه قائلةً و أنت أيضا!

مر الوقت سريعًا بين أحاديث الأصدقاء، وذكريات الأقارب، وكان «عادل» هو نجم الحفل بلا منازعٍ. التف حوله الجميع يسمعون مغامراته الكثيرة التي لم يتوقف عن الحديث عنها. استرقّت «فرح» السمع بين الحين والآخر لعلها تعرف عن حياته شيئًا. كان الفضول يقتلها؛ لتعرف أي سرٍّ قد يفيدها في فك لغز هروبه في الماضي، ولكن بالطبع لم تعرف أي شيء!

أما «عمر» فقد كان مشغولًا هو الآخر بخاله العائد من الماضي. هل أفسد هذا العادل الليلة بعودته المفاجئة؟

كانت تتمنى أن يكون «عمر» لها الليلة، كانت مستعدةً للقائه هو فقط. لم تكن مستعدةً لأي مفاجأةٍ الليلة.

جلستْ «فرح» على الأريكة أسفل الشباك الجانبيّ والذي يطل على الثلوج المنهمرة في الخارج. كان البرد قارصًا. لا أحد يحب أن يقضي هذه الليلة وحيدًا. ولعل أصعب وحدةٍ تلك التي تشعر بها و أنت بين الناس!

تسرب الملل لقلبها وأرهقتها الوحدة. كانت تتابع الناس من بعيد؛ فهذا يضحك وهذه تتكلم، هذا يسمع، وهذه تراقبه، هذا يشرب، وهذه تأكل... تتحرك الأفواه ولكنها لا تصدر صوتًا. كانت الصورة التي تراها «فرح» بلا صوتٍ. كانت تسمع في الخلفية موسيقى حزينة لا تعرف حتى مصدرها. حاولتْ ألّا تبقى وحدها حتى لا تلاحظها طنط

«ثريا» ولكنها لم تلاحظْ للأسف! فانشغالها بعادلٍ كاد يطير بعقلها.

ماذا أفعل هنا؟ هل هذه هي الحياة التي أردتها؟ أين أنا؟ لقد تعبت من البحث عن كل شيءٍ. ربما قد حققتُ كثيرًا مما كنت أحلم به. ربما هذا ما أردته بالفعل من البداية!

– تسمحيلي أقعد معاكي شوية؟ كان هذا «عادل».

تعجبتْ «فرح» من طلبه وتعجبتْ أكثر من نجاحه في الهروب من كل هذا الحشد الذي كان يحاوطه.

– أكيد طبعًا اتفضل. ردت «فرح»:

– أنا مش عارف إذا كنتي تعرفيني ولّا لأ... بس انا كنت اعرف مامتك كويس أوي. قال «عادل» على استحياءٍ حتى لا يساء فهمه.

– مش عارف أشرحلك إزاي أو أقولك إيه... بس أنا عايز أحكيلك قصة قديمة شوية، وعايز منك حاجة واحدة بس... تفهميني كويس. ساعات القدر بيدينا فرصة تانية نصلّح غلطة قديمة ماكنش عندنا الوقت إننا نصلحها زمان. أردف «عادل»:

– أكيد اتفضل. ردت «فرح» وهي تبتلع ريقها في خوفٍ وترقبٍ لما هو آتٍ.

وقبل أن يبدأ في الحديث ظهرت «كارمن»...

– معلش يا «فرح» مضطرة آخد منك خالو... أنا عايزة أوريلِك حاجة مهمة أوي.

– أنا بعتذرلِك... إن شاء الله حنتكلم تاني أكيد. قال «عادل» معتذرًا لفرح ومشى بصحبة «كارمن» التي خطفته فجأة و أبقت

«فرح» بصحبة فضولها الذي سيقتلها قريبًا إذا لم تعرف الحقيقة.

ولكن الليلة لم تنتهِ بعد... والمفاجآت ما زالت قادمةً!

ذهب «عادل» وجاء من بعده «عمر».

– «فرح» ممكن نتكلم شوية مع بعض. قال «عمر» العائد هو الآخر من سكون طويل.

ثم أكمل:

– أنا عارف إني الفترة اللي فاتت كنت مش عارف بالظبط أنا عايز إيه... كنت محتاج فترة أقعد فيها مع نفسي و افكر... وكمان الشغل كان واخد كل وقتي... ما تتصوريش الفيلم اللي أنا باعمله دلوقتي ده فيه تحديات أد إيه... و أنا مش بحب اعمل حاجة مش مقتنع بيها تمامًا.

– ربنا يوفقك يا «عمر»... انت بتحب شغلك ودي أهم حاجة... اللي بيحب شغله أوي مش حيحس بأى تعب مهما كان. ردت «فرح» وقد اضطربت دقات قلبها.

– بصي... أنا مش بعرف اعمل مقدمات كتير... فرح أنا بحبك!

هل توقفت الأرض الآن عن الدوران؟ هل صمت الجميع في الحفل حالًا؟ هل هذا صوت الموسيقى أم صوت دقات قلبي؟

«بحبك» ...

ماذا تفعل بنا تلك الحروف الأربعة؟ بضعة حروفٍ تُرص أمامك فتتساقط أمامك أوراقٌ من الياسمين، وتحلق فوق رأسك طيور الحب... تشعر بالبرد والحر في آنٍ واحدٍ... تهرب الدماء من أطر افك

وتجري سريعًا نحو قلبك في محاولةٍ لإنقاذه من الهوا الذي أصابه في مقتل!

كم من الوقت مضى على هذه اللحظة؟

أكمّ من لحظات ثمينة تمنينا أن يتعطل عندها الزمن، ولا يعود يعمل أبدًا خوفًا أن نفقدها!

تعثرت الكلمات على لسان «فرح» التي تسمرت في الأرض، وغرقت في بحر عينيه حتى الثمالة... سبقتها عيناها بضحكةٍ لمعت بداخلها القلوب الحمراء... رقصتْ رموش عينيها على موسيقى الحب، وتورد خديها بالورد الجوري البري، ونبت العنب الأحمر فوق شفتيها، وحان موسم قطافه!

وعلى أنفاسها المرتبكة يتقاسم العاشق وجعه، ويطفىء لهيب شوقه فوق شفتيها الغارقتين في العسل.

دائمًا ما تنجح القبلة المفاجئة في إنهاء حديثٍ لن تعرف الكلمات وحدها وضع حد له.

وتنطفئ الأنوار فجأة...

إنه العد التنازلي لبداية العام الجديد... وكأنّ السنة القادمة متواطئةً معهم في الحب... ستغلق عليهما الستار وتبقى قبلتهما المستمرة في الظلام حتى إشعارٍ آخر!

هل انتهت مفاجآت الليلة؟

نعم، فلنكتفي بهذا القدر لليلة حافلةٍ بالمشاعر غنيةً بالأحاسيس ومليئةً بالأحداث!

أعلن «عمر» علنًا عن حبه لفرح في الحفل، فبعد هذه القبلة المعجونة بالشغف، والغارقة في الشوق لم يعد لائقًا أن يخفى هذا العشق. بارك الجميع لهما وتمنوا كل أمنياتِ السعادة. أما طنط «ثريا» فلم تسعها الدنيا من الفرحة؛ فها هي أمنيتها تتحقق أمام عينيها. أخيرًا سترد الجميل لصديقتها الراحلة. ستصون لها ابنتها الوحيدة وتصبح أُمّا أخرى لها رسميًا. سيكون «عمر» على قدر المسئولية ليهتم بهذه الصغيرة الجميلة.

ستكون أنت الملك المتوّج على قلب أحدهم. ستكون أنت الهواء الذي لا يتنفس إلا به. ستكون أنت النبض الذي لا يحيا إلا بدقاته... لك كل ذلك فقط عندما تحبك الحياة، وتهديك الحب!

وفي سريرها احتضنت «فرح» رسائل أمها، وأخذت تشم رائحة الحنين بين كلماتها. كانت تبقيهم بجانبها وهي تكتب مذكراتها كل ليلةٍ.

ولكنّ الليلة ليست كأيّ ليلةٍ!

إنها الليلة التي لا يعود بعدها قلبك يعمل بكفاءته المعتادة. سيعزف موسيقى مختلفة من اليوم. سيكون عزفه منفردا بالحنين سيعزف على مقام الحب ألحانًا تغرد عليها العصافير وتتفتح بها الزهور. ستتبعثر دقاته وتبعثر حالك معها. سيدق طبول الفرحة برؤية الحبيب، ثم يهدأ قليلًا ويعود ليدق لوعةً واشتياقًا.

لماذا لم يخترعوا بعد دليلًا لكيفية التعامل مع القلب المتوعك بالحب!

وتذكرت كل تفاصيل الليلة المثيرة بكل ما دار فيها، فتذكرتْ فجأة أنها لم تستمع بعد لعادل. ما الذي كان يريد أن يبوح به لها؟

متى ستسنح الفرصة لتراه ثانيةً قبل أن يرحل؟ حتمًا لن يرحل قبل أن يقابلها، وستحدد هي موعد اللقاء!

في صباح اليوم التالي كانت «فرح» أمام منزل «ثريا»! لم يهمها كيف ستبدو متلهفةً للقاء حبيبها «عمر»؟ لم يهمها أن تبدو تلك البلهاء الغارقة في الشوق والتي لم تنم الليل حتى تشرق الشمس وتأتي لرؤيته. لم يكن يهمها اليوم سوى معرفة ما سيقوله «عادل»!

فرحت «ثريا» برؤيتها كثيرًا. وبلهفة الأمهات المعتادة كانت تريد التعجيل بكل الأشياء حتى يتم ارتباطهما رسميًا. هي تريد تحقيق أمنيةٍ قديمةٍ بينها وبين «فريدة»؛ فقد كانوا يتمنون سرًا بأن يجتمع أبناؤهم بصورةٍ أو بأخرى، حتى لو كأصدقاءٍ في الحياة مثل أمهاتهم، ولكن رباط الحب أقوى و أبقى.

– أهلًا يا حبيبتي... «عمر» لسه نايم... بس أكيد أول ما يعرف إنك هنا حيصحى على طول. قالت «ثريا» بحماسٍ شديدٍ. لا تعرف أنها لم تأتِ اليوم من أجل «عمر».

– خليه نايم يا طنط... أنا حاقعد معاكي شوية نشرب قهوتنا ويصحى هو براحته. ردت «فرح»، وقبل أن تكمل جملتها حضر «عادل». لقد جاء في الوقت المناسب، ولكنه تأخر أكثر من عشرين عامًا!

– صباح الخير... إزيك يا «فرح». قال «عادل».

– صباح النور. ردت «فرح» بلهفةٍ كانت تطل من عينيها لمحها سريعًا وكان عليه أن يجد مخرجًا لكي ينفرد بها وبحكايته القديمة.

– طيب أنا حاروح أعملكم قهوة. قالت «ثريا».

– لأ أنا عايز أعزم «فرح» على فنجان قهوة في كافيه «كاسكو»... أنا عايز كمان أتكلم معاها شوية. قال «عادل» لثريا المتوجهة للمطبخ فأوقفتها كلماته وارتسمت على وجهها علامات الدهشة. ماذا بينه وبين «فرح» لينفرد بها ولم يرها غير مرةٍ واحدةٍ؟ هل سيحكي لها عن قصة حبه لأمها؟ وما الذي سيجنيه من هذا؟ ألم يفت الأوان؟

كانت «ثريا» تعرف محتوى كل الرسائل ولكن الذي لا تعرفه «فرح» أن أمها طلبت أن تكون الثلاث رسائل الأخيرة سرية للغاية. وقد نبهت «ثريا» لذلك قبل وفاتها. أغلقت الرسائل الثلاث الأخيرة ووضعتهم في صندوقٍ في خزانةٍ سريةٍ في فندقٍ في القاهرة وطلبتْ من إدارة الفندق أن يسلموا ما به لثريا شخصيًا عندما تأتي.

أما الرسائل الأولى فكانت ترسلها لثريا بالبريد عبر الإيميل. وكانت «ثريا» تتولى طباعتهم ووضعهم في أظرفٍ كلٌّ في وقته المحدد وبالترتيب المتفق عليه، وهو سبب قلقها من هذا اللقاء بين «عادل» و«فرح». ماذا كانت تحتوي تلك الرسالة يا ترى؟ الرسالة الأولى من الرسائل الثلاث الأخيرة؟ وماذا يخفي «عادل» عنها؟

لم تُبدِ «ثريا» ترحيبًا بطلب «عادل» المفاجئ والغريب، وخاصةً أن «عمر» ما زال نائمًا وسيعرف حتمًا أن «فرح» كانت هنا.

– بس مش تستني يا «فرح» لحد ما أصحي «عمر» ويروح معاكم؟ أحرجتها «ثريا» بسؤالها هذا.

– أكيد يا طنط. ردت «فرح» بتوترٍ ملحوظٍ ثم لمحت بطرف عينيها نظرة إحباطٍ وعتابٍ في عينيْ «عادل» يبدو أن الأمر لن ينجح هذه المرة أيضًا ولن يستطيع أن يتحدث إليها.

وبالفعل مر اليوم بلا قصصٍ جديدةٍ وبلا مفاجآتٍ من الماضي. فجلسة المقهى جمعت بين الثلاثة فرح، عادل، وعمر. لم تسنح لعادل الفرصة بعد ليحكي ما في قلبه لها. جلستْ «فرح» شاردةً طيلة المدة. كانت تنتظر أن يتحدث «عادل»، ولكن صمته أمام «عمر» كان من شأنه أن يثير قلقها ويضغط بقوة على زر الفضول من جديدٍ الذي بدأ يأكل قلبها وعقلها.

كان الأمل في اللقاء التالي بينهما عندما أخذت «فرح» رقم موبايل «عادل» بحجة أنها تريد أن تجري معه حديثًا صحفيًا يحكي فيه ذكرياته كطيارٍ سابقٍ. كانت فكرةٌ رائعةٌ تلك التي جاءتها دون سابق ترتيب. وإلى موعدٍ قريبٍ يتفقان فيه على اللقاء من أجل الحديث الصحفيّ ودّعت «فرح» «عادل» الذي استأذن ليتركهما ينفردان ببعضهما بدونه.

– ظريف أوي أونكل «عادل»... أنا ما كنتش أعرف إن عندك خال وسيم كده! قالت «فرح»

– هو مهاجر من زمان أمريكا... وماكنش بيزورنا إلا نادرًا... حياته كانت فوق السحاب دايمًا... سمعت كتير عن إنجازاته في الطيران وخبرته الكبيرة... رد «عمر» ثم أردف قائلًا:

– وأكيد طبعًا وسيم طالع لابن أخته! ضحك «عمر» بشقاوته المعتادة والتي تقع في حبها «فرح».

ضحكت على ضحكه «فرح» ثم سألته:

– عنده أولاد؟

– لأ... خالي ما اتجوزش... ودي حاجة أنا مش عارف سببها...

أنا كنت أسمع أن البنات بتجري وراه طول عمره... بس الظاهر إنه مالقاش الحب اللي يستحق يقضي معاه عمره كله. رد «عمر» وترك عينيه معلقةً بعينيْ «فرح» فكلامه يعنيها ويقصدها. احمرّت وجنتيها خجلًا ولم ترد.

المشكلة ليست في ردها الآن المشكلة أن «عمر» يغرق كل مرة في عسل عينيها وهو لا يجيد العوم، بل يبدو أنه حتى لا يريد أن ينجو، وأصبحت هوايته الجديدة هي الغرق فيهما كلما تسنح له الظروف!

كان فيهما شيء من العمق والهدوء في آنٍ واحد. شيء من نظرةٍ بريئةٍ وأخرى لعوب. كان فيهما جاذبيةٌ تغري بالجنون. تغري بأن يطلب منها أن تأتي معه الآن إلى الأستوديو الجديد الذي بدأ في تجهيزه لتكون تلك خطوةً جديدةً في حلمه الطويل. ما زال المكان تحت الإنشاء والمسافة ليست قريبة ولكن ولأنها ليست أقل منه جنونا فلم تمانع.

منذ متى بدأ جنوني بك؟

ترى يوم رأيتك لأول مرة أم يوم سرقتني ضحتك؟ عندما تتكلمين أم عندما تصمتين؟ عندما تدعوني عينيك للغرق أم عندما تغريني شفتيك للقبل؟ إنه كل ذلك يا حبيبتي، فأنا أذوب عشقًا في حضورك الأنثوي الشهي!

وفي الأستديو كان المكان هادئًا، خاليًا من الناس مزدحمًا بالمعدات والأجهزة وصناديق دهانات الحوائط التي لم تكتمل بعد. تعم الفوضى المكان بين أجهزةٍ مغلفةٍ استعدادًا لافتتاح الاستديو قريبًا، وبين صناديق الدهانات ومعدات البناء المتروكة جانبًا حتى

يأتيَ العمال في الصباح لمباشرة أعمالهم.

أبدت «فرح» سعادتها البالغة بالمكان، والذي حكى «عمر» لها عنه كثيرًا. كان إعجابها نابعًا من أنّ «عمر» يصطحبها إلى مكان حلمه الذي أوشك على الانتهاء من تحقيقه؛ فليس هناك أخلص من شخصٍ يأتمنك على حُلمه ويطلعك عليه حتى قبل أن يكتمل؛ فأنت الآن جزء من هذا الحلم!

أليس في دعوتي لها لزيارة هذا المكان شيء من قلة التعقل ورغبةٌ سريةٌ لاستدراج الظروف لأشياءٍ جنونية؟

ولكن من يكترث؟ فبرغم كل التحذيرات التي نسمعها إلا أننا لم نمتنع يومًا عن ارتكاب الحماقات. فلا منطق للحب خارج الحماقات والجنون، وكلما ازددنا عشقًا كبرُت حماقاتنا.

وبين كل تلك الفوضى، بدأت الأحاديث عن السينما، والحياة، والحب، ومثل كل مرة يرفعها «عمر» فوق السحاب بحكاياته عن عالم السينما الساحر.

كانت كالقطة الصغيرة يربت على عقلها بقصةٍ، ثم يدلل قلبها بضحكته التي تقطر عسلًا؛ فتتعثر القطة في كرة الخيوط التي يلاعبها بها، فهل تستطيع الإفلات من الشباك؟

فربما يكون للقطة سبعة أرواحٍ ولكنها بقلبٍ واحدٍ!

– إمتى حتخلص فيلمك الجديد؟ سألت «فرح» بحماس.

– الشهر الجاى مفروض نبتدي في المونتاج والمكساج وبعدها يكون الفيلم جاهز للعرض. رد «عمر» المتحمس جدًا لفيلمه الثاني.

– أنا حاسّة إنه حيكسر الدنيا... أنا واثقة في مخرجي المفضل. قالتها وضحكتْ.

– ما سألتنيش اسم الفيلم إيه؟ مش عايزة تعرفي؟ سألها «عمر».

– أنا نفسي أسال السؤال ده من زمان بس كنت خايفة تقولي إنه مفاجأة. ردت «فرح».

«أمل»... فاكرة؟

قال «عمر» مبتسمًا:

– اسمه Sperare.

– قفزت عينا «فرح» تبحث عن القلادة التي اشترتها له منذ شهورٍ، فإذًا بها تتلألأ، وتتدلى من عنقه. ابتسمت وغمرتها السعادة حتى أذنيها. هل سمى فيلمه الجديد على اسم القلادة من أجلها؟ هل ألهمته القلادة فكرة الفيلم؟ ولكنه ليس المؤلف، فكيف حدث هذا؟

– الفيلم كان له اسم مؤقت... بس في الآخر أنا والمؤلف فكّرنا في اسم تاني... وفي مرة واحنا قاعدين بنتكلم لفتت نظره الحروف العربية اللي مكتوبة على القلادة ولما عرف معناها اتغير اسم الفيلم، ثم أردف يحكي لها نبذة عن الفيلم.

تدور أحداث الفيلم حول شابٍ يعيش قصة حبٍ ساخنةٍ مع حبيبته الجميلة. كانت حياته مثالية إلى أقصى درجة. تلك الحياة التي يتمناها أي شخصٍ في الدنيا. تلك الحياة التي تبدو كاملةً ولا ينقصها أي شيء، ولكن بعد زواجه بشهرٍ واحدٍ يُصاب بمرض السرطان الذي لن يمهله في الحياة إلا بضعة شهورٍ! كانت صدمته كبيرةً، فَلِمَنْ سيترك

حبيبته؟ لِمَنْ سيترك ثروته من بعده؟ لماذا سيرحل وهو يحب الدنيا؟ هل عليه أن يكرهها الآن من بعد أن خذلته، وحطمت أحلامه؟

لا لم يفعل... تمسك بكل أملٍ له في الحياة؛ فمهما كان الأمل قليلًا فهو في النهاية أمل وعلينا التعلق به حتى آخره.

الأمل هو طوق النجاة الذي نرميه للغريق الذي يصارع الأمواج المتلاطمة، وعليه أن يحاول التشبث به حتى النهاية. ربما لن يصمد الطوق طويلًا أمام البحر الهائج، ولكنه ليس الطوق الأخير. ففي الطريق إلى بر الأمان سيتعلق بكل ما تصل إليه يده؛ فتلك صخرة، وهذا قارب صيد صغير، وهذه قطعة خشبٍ تطفو على السطح وهذا إطار سيارةٍ قديمٍ لم يستطع البحر أن يلتهمه. ستأخذك الأحداث للكثير من المفاجآت غير المتوقعة حتى نصل للبر الثاني، فهل يا تُرى سيكون بر الأمان أم أنها فقط نهاية كل الأشياء» الموت»؟!

كان «عمر» مندمجًا في الحديث عن الفيلم ولم يتنبّه بأن عينيها كانتا على حافة البكاء. توقف فورًا عن الكلام و اقترب منها ليعرف ما بها. فإذًا بها ترتمي في أحضانه كالطفلةِ الصغيرة التي تبحث عن الأمان الضائع. هذا الأمان الذي أخذته منها الحياة مرةً تلو الأخرى. مرةً بفقدان الأب، ومرةً بفقدان الأم.

لقد كان المثل الشعبيّ على حقٍّ: «الذي مات أبوه لم يتيتم، وحده من ماتت أمه يتيم».

وأخذت تجهش بالبكاء بين ذراعيه ولم تدرِ ماذا أصابها من كلماته!

إنه الجوع إلى الحنين: ذلك الشعور البغيض الذي يظل ينحر

فيك من الداخل، ويلازمك أينما كنت، وكلما اعتقدت أنك قد تغلبت عليه، يثور من جديدٍ ويأتي عليك بطريقةٍ أو بأخرى.

يا ويلي... ماذا فعلتُ بهذه القطة الصغيرة المرتمية بأحضاني؟ كيف لم انتبه لكلامي؟ كيف لم أنتبه لدموعها قبل أن تتساقط؟ كيف لم أتذكر أن قصتي ذكّرتها بأمها ورحيلها المفاجئ؟

رفع رأسها من بين أحضانه ليمسح دموعها، ولكنها لم تكن قد انتهت بعد من هجمات الذاكرة الحزينة. طلّتْ بعينيها من وراء قطرات الدموع المترددة، ونظرتْ على استحياءٍ لعينيه وكأنها تعتذر عن حضنها الطائش له.

وتحدثت النظرات؛ فهذه تعتذر وتلك تطبطب، الثالثة تشتاق والرابعة تحدّق، أما الخامسة فكانت تقول أحبك!

كان «عمر» يريد أن يقول شيئًا لم يعد يتذكره، وقبل أن يقول أي كلمةٍ كانت شفتاه قد سبقته وراحت تلتهم شفتيها في قبلةٍ محمومةٍ ستقول حتمًا كل شيء!

كانت عيناها الحزينتين تزيده غرقًا، وكان لضعفها في حضنه لذّةً لم يختبرها من قبل. لذّةً تستدعي رجولته، وقوته ليحتويها.

أكان من الممكن أن يصمد طويلًا في وجه أنوثتها المعجونة بالرقة الشهية، والضعف اللذيذ؟

كنت قد قرأت عن «قُبَلٍ» قد غيّرت عُمْرًا ولم أصدق، ولكنني الآن أعرف كيف؟!

وبين وعدٍ بلقاءٍ جديدٍ، وأملٍ في قُبلةٍ أخرى يودعها بجسده فقط، أما عقله وقلبه؛ فقد أصبح لها هي أبدًا لم ولن تفارقه!

في صباح يومٍ مشمسٍ برغم شتاء روما البارد، وفي المقهى المطل على ساحة كاتدرائية سان بيترو العظيمة كان لقاؤهما. لقاء الماضي والحاضر، لقاءٌ بين حكايات زمانٍ، ووجع الحب الضائع، بين الحقيقة والأسرار.

طلبت «فرح» فنجان القهوة الأول، وجلست تنتظر«عادل». كان لقاؤهما اليوم بحجة أنها تجري معه حديثًا صحفيًا كطيارٍ متقاعدٍ من أجل المجلة، والحقيقة هي تنتظر أن يجري معها هو حوارًا يفتح فيه قلبه لها بقصصٍ من الماضي لا تعرفها. انتظرت، وامتلأت بالشغف والترقب لما هو آتٍ.

وصل «عادل» ذلك الخمسينيّ الوسيم. كان حضوره قويًا وجذابًا لا يستطيع أن يفلت من نظرات الإعجاب برغم سنه؛ فللرجال سحرٌ لا يقاوَم عندما يتقدمون في العمر.

فتلك التجاعيد الوسيمة حول العينين لوحةٌ مرسومةٌ لكل نظرات عينيه؛ فتلك تحدّق بجمالك، وتلك تبتسم بدهاءٍ رجوليٍّ ساحرٍ. أما تجاعيد الفم فلها سرٌّ... اقتربي قليلًا سيحكيها هو لكِ!

مَن منكن ينجح في مقاومة سحر رجلٍ يحكي وجهه كل تلك الحكايات؟

– بونجورنو «فرح». قال «عادل» مرحّبًا بودٍ شديدٍ.

– بونجورنو سينور «عادل». ردت «فرح».

– أنا متأسف اتأخرت عليكي شوية... بس كنت بشتري حاجة مهمة. قال «عادل» وهو يضع أمامها علبةً صغيرةً يبدو أنها هدية، ثم أردف قائلًا:

– افتحي العلبة دي يا «فرح»... دي ليكي.

– علشاني أنا؟ قالت «فرح» متعجبةً.

– أيوة... افتحيها بس و أنا حفهمك. رد «عادل».

مدت يديها لتفتح العلبة الصغيرة، والتي يبدو عليها أنها قد ازيّنتْ بورق الهدايا منذ قليلٍ، وداخل العلبة كان يختبئ خاتمٌ ذهبيٌّ بفصٍّ ألماظٍ صغيرٍ، ولكنه يبدو قيّمًا جدًا.

زادتها الهدية دهشةً؛ فهل من المعقول أن تكون هذه الهدية الغالية من أجلها؟ وحتى لا يزيد «عادل» من حيرتها أعقب قائلًا:

– الخاتم ده عمره من عمرِك تقريبًا. الخاتم ده حزين من يوم ما «فريدة» رفضت تلبسه.

– ماما؟ أنا مش فاهمة حاجة! ردت «فرح» ولم تستطع أن تخفي دهشتها.

– أنا حشرحلك القصة كلها... يمكن تفهميني وتقدري كلامي اللي مش عارف إذا كان له فايدة دلوقتي ولا لأ! أنا كنت دفنت الحكاية كلها في قلبي من أكتر من عشرين سنة... بس لما شفتك هنا حسيت إنك لازم تعرفي. قال «عادل» بصوتٍ يملؤه الحسرة وبنبرةٍ مكسورةٍ تنمُّ عن حزنٍ قديمٍ.

بدأ «عادل» في سرد قصةٍ عمرها أكبر قليلًا من عمر «فرح» القصة التي تعرف هي جزءًا منها فقط، ذلك الجزء الذي عرفته من رسالة أمها الأخيرة. حكى لها بدايات الحكايات. بدايات الأشواق واللحظات الثمينة التي مهما مر عليها الوقت، فإنها تلح على ذاكرتنا كي لا ننساها. حكى لها قصة عشقه لفريدة منذ أن وقعت عيناه عليها

في منزلهم لأول مرةٍ. كان يصف مشاعره وكأنه رآها بالأمس. أخذته الذكرياتُ بعيدًا إلى القاهرة حيث بدأ الحب، ثم طارت به إلى أمريكا حيث بدأتْ النهاية الحزينة!

كان حبٌّ من نوعٍ خاصٍ جدًا. حبٌّ كالذي نسمع عنه في الروايات الغرامية؛ ذلك الذي يباغتك دون أن تدري. يداهمك كموجة بحرٍ متمردةٍ، يرميك بسهمٍ من نارٍ؛ فتشتعل فيك كل الحرائق، وتبوء كل محاولاتك من الإفلات من لهيب الحب بالفشل. كنا نتدحرج كل يومٍ أكثر نحو هاوية الحب.

كانت «فرح» تنصت بتمعنٍ للقصة، وتتذكر كلمات أمها الموجزة عنها. لم تحكِ لها في الرسالة التفاصيل، وبالطبع الجزء الذي تنتظره لم يأتِ بعد لماذا رحل عنها، وكيف انتهت الحدوتة؟

– اتفقنا على الخطوبة، وحددنا موعدها مباشرةً بعد رحلة أمريكا. كانت قصة حبنا وقتها عمرها سنة واحدة بس... كانت أحلى سنة في عمري كله... كنت شايف المستقبل وبحلم بكل يوم وانا مع «فريدة»... إحنا كمان اخترنا أسامي لأولادنا... اسمِك هو الإسم اللي اخترناه لو جت بنت... «فرح». قال «عادل».

نعم... كانت تعرف «فرح» من الرسالة عن رحلة أمريكا. تلك التي ذهب فيها «عادل» ولم يعد، ولكنها عرفت الآن أنّ اسمها كان من اختياره هو مع أمها!

– لما سافرت أمريكا كنت باعدّ الأيام علشان ارجع لها... كان مفروض رحلتي أسبوعين بس وارجع مصر... بس حصلت مفاجأة غيّرت كل أحداث الحكاية وغيّرت مجرى حياتي كلها. يحكي «عادل»

بنبرةٍ تقتر ألمًا وحزنًا. ثم أكمل:

– كان لي صديق طيار رحت معاه المستشفى علشان كان حيعمل عملية جراحية بسيطة... وقبل العملية طلبوا منه تحاليل كتيروفحص شامل... و أنا انتهزت الفرصة وعملت «تشيك آب» كامل وطلبت تحاليل خاصة بيعملوها كل المقبلين على الزواج... وياريتني ما عملت!

– التحاليل والفحوصات أظهرت إن عندي عيب خلقي يمنعني من الإنجاب... كانت صدمة كبيرة... حسيت ساعتها إني تايه... كنت عايز أجري وأهرب من العالم كله... ماكنتش عايز حد يعرف حتى عيلتي... قعدت هناك فترة رحت لأكتر من دكتور وعملت تحاليل جديدة... كنت بحاول أدور على أمل أعيش عليه حتى ولو واحد في المية... بس للأسف كانت الفحوص الجديدة بتأكد بما لا يدع مجالا للشك إني مستحيل أبقى أب.

وقد يخرج قطار القدر عن مساره؛ ليدهس أحلامك في لحظةٍ جنونيةٍ، فتتناثر أشلاؤها لتصيب كل شيء!

تنصت «فرح» بكل اهتمامٍ وترقبٍ، وما زال «عادل» يسترجع الماضي وتستمر الحكاية.

– بعد تفكيرٍ طويلٍ قررت ما ارجعش مصر... ما اقدرتش ارجع واكمل... ما اقدرتش أواجه «فريدة» و أقولها الحقيقة... أو حتى نتجوز وأخبي عليها وتعرف بعد الجواز... ما اقدرتش ابقى شجاع واواجه مصيرى... ما أقدرتش أديها حقها في إنها ترفض أو تو افق... لإني كنت متأكد إنها هتو افق حتى بعد ما تعرف لكن أنا ما أقدرتش

أكون سبب في تعاسة حياتها وأحرمها إنها تكون أم. كنت لازم اضحي علشان أنا عارف ومتأكد من حبها، بس كمان كنت متأكد وو اثق من حبي ليها. قال «عادل» بصوتٍ يحمل وجع السنين، ودموعٍ حبيسةٍ داخل عيون القدر القاسي.

ما أقسى القدر حين يتلاعب بأحلامنا!

ما أقسى الحياة عندما تلوح لك بالحلوى؛ لتقبل عليها، فإذا بها تناولك العلقم بيديها!

ما أقسى الإنسان حين يقرر أن يكسر قلبه بنفسه!

ما أقسى العمر الذي تقضيه وحيدًا دون نصفك الآخر!

– أنا حكمت على نفسي بالإعدام لما سبت «فريدة»... كنت بموت ببطءٍ كل يوم... أنا مش بس بعدت عنها وده عذاب لوحده... لكن كمان أنا خليتها تكرهني وصدمتها فيّ لما عرفت إني عرفت واحدة تانية وحنتجوز ونعيش في أمريكا. أكمل «عادل» بقلبه الذي يكاد ينشطر حزنًا على حبيبة القلب التي ضاعت إلى الأبد.

تتأمل «فرح» الحياة، وتتابع مفارقات وتخطيطات القدر. تسرح مع رو ايته التي تأخذها بعيدًا إلى الماضي السحيق، ثم تقذف بها بلا رحمةٍ إلى بر اثن الحزن من جديدٍ. تلك القصة التي لم تنسَها أمها حتى أنها تذكرتها بحذافيرها في أواخر أيامها، وحكتها لها في الرسالة. تلك القصة التي تعافت من بعدها عندما حن عليها القدر، فأهداها أبي. أبي كان هو «الأمل» الذي جاء متنكرًا على هيئة حبٍّ حقيقيٍّ كان لها النجاة والحياة.

غريبةٌ هي الحياة عندما تعلقك بها، ثم تتركك؛ لتسقط وحيدًا،

ولكن وقبل أن ترتطم بالأرض تفتح مظلة الأمل، وترتفع بك عاليًا مرةً أخرى لتحلق من جديدٍ.

– وماما معرفتش الحقيقة أبدًا؟ سألته «فرح».

– برغم حياتي البائسة وكل الوجع اللي عشته بعد ما فقدت حب حياتي ما حاولتش مرة واحدة أقرب منها... كنت بعرف أخبارها كلها من بعيد، حتى لما انزل أجازات قصيرة لمصر كنت بتجنب اشوفها وخصوصًا لما عرفت انها اتجوزت. قال «عادل»، ثم توقف للحظاتٍ ونظر لكأس النبيذ الموضوع أمامه وكأنه يتذكر شيئًا، ثم ارتشف منه القليل لعلّ الخمر يذهب بعقله فينسى، ولكن أي خمرٍ هذا الذي يفلح بأن يذهب هذا الحنين، ويطفئ النار المشتعلة التي تكاد تشتم رائحتها في قلبه؟

– لما عرفت إن والدك اتوفى رجعت مصر... قلت إن أكيد دي الفرصة اللي القدر بعتهالي ومش لازم أضيعها... كانت مقابلة صعبة عليّ جدًا... كنت محتاج اشرح ليه مشيت وليه رجعت... كان على قلبي حجر بيكبر كل يوم وعلشان فجأة أتخلص منه كان صعب... صعب أوي.

وهل تصفى القلوب بعد الفراق؟ هل يلتئم القلب المكسور؟

– وإيه اللي حصل؟ ماما عرفت كل الحقيقة؟ عرفت انك ضحيت علشان سعادتها؟ سألت «فرح» بشغفٍ لا داعٍ له... فالنتيجة واحدةٌ، لقد تأخر كثيرًا وفات الأوان!

– عرفت كل حاجة، ورفضت كل حاجة علشانك! رد «عادل» ردًا مقتضبًا؛ لينهي كل شيء بجملةٍ واحدةٍ.

وعرفت «فرح» سرًّا لم يكن أبدًا لتعرفه لولا ظهور «عادل» بالصدفة في حياتها. عرفت الحقيقة التي لم تحكِها لها أمها في رسالتها عنه. عرفت أن أمها رائعة كما كانت تعرف دائمًا، ولكنها اليوم تضيف روعةً جديدةً إلى كل خصالها المدهشة. لقد ضحت بسعادتها من أجل ابنتها الوحيدة. ضحت، ولم تكن تعرف أنها سترحل، وتتركها وحيدةً أيضًا.

لعلها قست على نفسها كثيرًا. قست عندما قررت أن تمضي حياتها وحيدةً دون شريكٍ، وقست مرةً أخرى عندما أخفت مرضها عن ابنتها سنتين كاملتين كانت تذهب للعلاج دون أن تعرف. كانت تتألم دون أن تعرف. كانت تعرف الحقيقة ولم تخبرها. كانت تعرف النهاية ولم تقل.

أليست كل هذه قسوة؟ أم لعلها قسوةٌ باسم الحب!

إنها قصةٌ تحمل الوجع والقسوة. قصة الحب والتضحية. ضحى بطلا القصة كلٌّ في وقته، كلٌّ في دوره. كانت في كل مرةٍ التضحية كبيرةٌ وقاسيةٌ والمجني عليه واحدٌ في المرتين. إنه الحب!

وبعد أن نعرف النصف الآخر من الحقيقة يظل دائمًا هناك جزءٌ ناقصٌ. الجزء الذي انتهى بانتهاء حياة أحدهم.

هكذا هي الحقيقة دائمًا... بوجوهٍ كثيرةٍ... أيهم سنصدق؟

عرفت «فرح» قصة الخاتم. كان عُمْرُ الخاتَمِ في الواقع أكبر منها قليلًا؛ فقد اشتراه «عادل» لامّها عندما سافر أمريكا كهديةٍ للخطوبة التي لم تتم. لم يكن يعرف أنه سيظل في حوزته كل هذا الوقت. وقد أحضره معه ذلك اليوم، عندما أتى بعد كل تلك السنين ليصلح ما

أفسده بنفسه. اليوم الذي تمنى فيه أن تعطيه الحياة فرصةً أخرى للسعادة. أنْ تَمُنَّ عليه حبيبته بما تبقّى لها من العمر ليقضيه بجوارها. كان يريد تعويضها عن كل ما فات، ولكن يبدو أنه أتى متأخرًا جدًا!

يقولون أحيانًا أنْ تأتي متأخرًا أفضلُ كثيرًا من ألّا تأتي أبدًا!

فأمي عرفت في ذلك اليوم أن حب عمرها لم يخنها، لم يتركها في منتصف الطريق، لم يتغير ربما كان عليه أن يقول لها الحقيقة ولكن تجبرك الحياة أحيانا على الصمت.

تصمت؛ لتفسح الطريق لقدرٍ جديدٍ تضعه في طريقك.

تصمت حتى تمر السنوات.

تصمت لكي تختبر قوتُك.

تصمت وتتابع من بعيدٍ.

قد تصمت كثيرًا أو قليلًا، وعندما تسنح لك الفرصة للكلام قد تمتلك الدنيا وما فيها، أو قد لا تحصل على أي شيء!

الرسالة التاسعة

(سر الحياة)

وفي منزل العائلة في روما كان «عادل» يحزّم أمتعته للرحيل من حيث أتى. سيعود للحياة التي اختارها له القدر. اختارها له واستسلم دون أي محاولةٍ للتحايلِ على ألاعيب الزمانِ، وإحباطات الحياة. انتهت احتفالات العام الجديد، وبدأت نتيجة العام تحسب أيام عمرنا الذي يجري.

سيرحل «عادل» ويغادر بهدوءٍ مثلما فعل من قبل. لم تعرف حتى أخته حقيقة انفصاله عن صديقة عمرها قديمًا. لم تعرف سوى الجزء المسموح معرفته للجميع. الجزء الذي لا ينصفه ولكنه لا يجرحه في نفس الوقت. الجزء الذي يقول لهم فيه أنه يحب حياته هكذا دون زواجٍ أو ارتباطٍ. سيتنقل كالعصفورِ بين الأشجار، سيسكن غصنًا جديدًا كل يومٍ. سيحتمي بظلال الأشجار من أمطار الحياة ومن نوبات الحنين. سيعشق الحرية حتى آخر يومٍ من عمره. سيعشق كل ما قد ينسيه سنوات عمره الضائعة. سيرحل ويرضى بالقدر المكتوب!

تدور عجلة الحياة؛ لتنقلك إلى فصلٍ جديدٍ من فصول القصة. تدور لتأخذك بحماقاتك، وخبراتك، وبراءتِك، وجنونِك، ولن تكفّ الحياة يومًا عن مفاجآتها!

وفي حدوتة الحب الصغيرة يكمل العاشقان في طريق السعادة، ويبدآن في التحضيرات للعرس الكبير. وليس هناك أكثر رومانسيةٍ من مدينة العشاق. إنها مدينة البندقية العائمة في السحر والجمال. المدينة التي تشهد الآن تصوير فيلمه الجديد وسوف تكون شاهدةً على توثيق قصة حبه للأبد.

ها وقد اقتربنا من النهايات.

وأوشكت الرسائل على الانتهاء.

أوشكت الكلمات على النفاد.

و اقتربت الحكايات من كلمة النهاية.

سيسدل الستار قريبًا على مسرح الحياة؛ لتعلن نهاية القصة، وسنصفق جميعًا ونحن في مقاعد المتفرجين. سنصفق، ونخرج من المسرح بجرعةٍ لا بأس بها من كل شيء. سنخرج؛ لندخل مسرحًا جديدًا، ومسرحيةً جديدةً تحكي قصةً مختلفةً من قصص الحياة التي لن تنتهيَ حتى تفنَى الحياة...

أو حتى يحين اللقاء!

تجلس «فرح» بين الرسائلِ المبعثرةِ فوق سريرها تعيد قراءتهم. تعيد قراءة كل الكلمات، تارةً بصوتها، وتاراتٍ بصوت أمها، ويبدو أنّ الوقت لم ينجح بعد في تخفيف وطأة الحنين، لم ينجح بعد في الطبطبة على قلبٍ أَعْيَاهُ الفِراق.

وبرغم أن الموت حاسمٌ إلّا أن الزمن وحده هو الذي يحسم أمر الحنين!

استلمتْ «فرح» رسالتها الجديدة من طنط «ثريا»؛ تلك الأخيرة التي لا تعرف عن هذه الرسالة أي شيء. فكما اتفقت مع «فريدة» أن تبقى هذه الرسائل الثلاث الأخيرة سريةً حتى عنها. وقد نفذت «ثريا» الصديقة المخلصة وصية صديقتها الراحلة بكل أمانةٍ. كانت تمتلك الرسائل الثلاث الأخيرة قبل سفرها إلى روما. كانت الرسائل في خزانةٍ سريةٍ في فندقٍ بالقاهرة، وقد تسلمتهم جميعًا قبل سفرها، و أبقت عليهم مغلقين كما تسلمتهم، ولم تسمح لنفسها أن تقترب منهم إلا في الوقت المحدد لكل رسالةٍ.

تبدأ طقوس قراءة الرسالة الجديدة. امتلأت السماء برائحة الحنين، وامتلأ القلب الوحيد بالغصة التي تصيبه دائمًا في كل مرةٍ يلمس أوراق رسالةٍ جديدةٍ.

لا أعرف لماذا أحب أن تصلني الرسائل: تلك الرسائل الخاصة التي يرسلها لي شخصٌ ما، في مكانٍ ما، في وقتٍ ما... شخصٌ أمسك بقلمه أو بمفاتيح هاتفه، وأخذ يسطر حروفا من أجلي... لا أعرف حقًا ما سر سعادتي بذلك، ولكن ربما لأن هذا الشخص حتمًا كان يفكر بي!

الرسالة التاسعة

ابنتي الغالية...

ها قد اقتربنا من النهاية... أعرف أنك لا تحبين النهايات مثلي... ولكن لكل نهايةٍ بداية... وخلف كل عتمةٍ يسطع ضيٌّ نورٍ جديدٍ... فقط انتظري شمس كل صباح.

رسالتي هذه تحمل سرًا طالما أردتُّ إخفاءه عنكِ... ، ولكن

ولأن وقتي في هذه الحياة قد قارب على الانتهاء، فلا بد أن أبوح لكِ به.

في رسالتي السابقة حكيت لكِ قصة حبي الضائعة لعادل. قصة حبٍّ لم تكتمل. قصة حبٍّ اعتقدت أنني لن أحصل على مثيلٍ لها مهما حييت. قصةً قد لا تتعافى منها الكثيرات، ولكن القدر كان رحيما جدًا بي. كان رحيمًا عندما أهداني والدكِ، وكان حنونًا عندما عرفت حقيقة حبي الأول. عرفت ولكن بعد فوات الأوان!

يمضي الإنسان عُمْرًا كاملًا في البحث عن الحقيقة... في البحث عن تفسيرٍ لوجعه ولغدر الزمان... وينهك العقل والقلب معًا في رحلة البحث هذه. وعندما تزورك الحقيقة في يومٍ من الأيام لن تجد قلبًا يتسع لها ولا عقلًا يستوعب كلماتها... إنه يا عزيزتي ما يسمى بفوات الأوان!

لقد عاد «عادل» بعد وفاة والدكِ. عاد ليحكي لي حقيقة تركه لحبنا. ربما لن تهمك الحقيقة الآن كما لم تعد تهمني حينها، ولكنه عاد!

لن أخفيك سرًا فعودته لي أثلجتْ صدري كثيرًا رغم سنين الفراق، رغم سنوات الحنين ولكن رغم كل شيء، رفضته!

وكما عودت نفسي، فإن الحياة كانت تبعث لي رسائل كل يومٍ، وكان «عادل» يومها هو الرسالة التي أرسلها لي الله. فبعد وفاة والدك كنت وحيدةً من جديدٍ. كنتِ أنتِ طفلةً صغيرةً، ربما لا تتذكرين كيف كانت حياتنا القصيرة مع والدك سعيدة ولكنكِ

حتمًا تذكرين والدك.

هل تتذكرين حبه لكِ؟ هل تتذكرين الاسم الذي كان يدللكِ به؟ هل تذكرين الحب الذي كان يمنحه لكِ كل ليلةٍ مع حدوتته المسائية؟ كنتِ أنتِ حياته وكنتُ أنا روحه.

كانت صدمة رحيله موجعةً حتى الموت. كان غيابُه مؤلمًا حتى الصراخ. كان انتهاء كل السعادة كفيلًا بأن تتلون الأيام باللون الأسود الحالك الدميم. لم يعد الهواء حولي صالحًا للتنفس وكأنّ الأكسجين قد نفذ من الحياة، حتى رأيتُ ابتسامتكِ لي يومًا ما وأنا أحاول أن أخفي عنكِ دموعي المنهمرةَ على وجنتيّ.

كنت بريئةً بابتسامةٍ لا تعرف الحزن. بنظرةٍ تحمل من الحنانِ قدرًا كان كافيًا وقتها بأن ينسيَني كل الوجع. كنتُ أنظر لعينيكِ الصغيرتين وأنتِ تبتسمين ببراءةٍ وتناوليني بيديكِ التي تختفي بين يديّ المناديل الورقية حتى أمسح بها دموعي.

لم يكن عقلك يستوعب بعد معنى الغياب، معنى الفراق، معنى الموت. كان صعبًا أن أشرح لكِ حينها كيف أنّ والدكِ لن يعود أبدًا. لم يكن هنيًّا عليّ أبدًا أن أحرمكِ حتى من الأمل ولو مؤقتًا. عاهدتُ الله ونفسي وإياكِ أن أكون لكِ أبًا وأمًّا. لن أسمح لليتم بأن يشعرك بالحزن. لن تكوني أبدًا وحيدةً وأنا بجوارِك.

ولكن ولسخرية القدر فها أنا أيضًا سأتركِكِ وسأرحل للأبد.

هل ستشعرين باليتم الآن من جديد؟

يا صغيرتي... لا تظنين أن أمك بهذه القوة وهذه الشجاعة كما يبدو لكِ ويبدو للجميع؛ فأنا أضعف مما تتصورين ليس

لأنني أهاب الموت، ولكن لأنكِ في الماضي كنتِ أنتِ الأمل فأكملتُ حياتي من أجلِك وبكِ، ولكن إنّ قلبي لينشطر في كل مرةٍ أتخيلك وحيدةً، في كل مرّةٍ أراكِ تبكين، في كل مرةٍ ستشتاقين إليّ، وسأشتاق إليكِ، ولكنني أصبّر قلبي وعقلي وأقول لهم أنكِ ستكونين قويةً مثل أملكِ، بل ستكونين أقوى، ولكن عليكِ أن تبحثي عن الأمل الذي ستعيشين من أجله.

والآن قد حان وقت السر الذي وعدتُكِ به، ولعلكِ ستندهشين عندما تعرفين أنني أنا أيضًا لم أكن أعرف عن هذا السر شيئًا لمدةٍ طويلةٍ!

هل تذكرين الرسالة الثانية؟ تلك التي حكيت لكِ بها عن دار الأيتام الذي اعتدت على زيارته؟ لم تكن القصة كما حكيت لكِ، ما زال هناك جزءٌ ناقصٌ!

كان والدكِ يذهب إلى هذه الدار بصفةٍ منتظمةٍ. في البداية لم أكن أعرف، ولكنه أخبرني بعد ذلك وقال لي أنه يذهب للأيتام ويشتري لهم ما يحتاجون، ويقضي وقتًا معهم، وفي يومٍ من الأيام قال لي الحقيقة. لا أعرف لماذا قرر يومها أن يقول لي؟ ولكنني عرفت!

إنه «وليد» عمك الذي لم تعرفي عنه شيئًا وللأسف لن تعرفي بعد الآن!

كان والدك يخفي هذا السر عني لفترةٍ طويلةٍ. كان «وليد» أخاه الأكبر ولكنه كان مصابًا بمرضٍ عقليّ منذ الولادةِ. كان مرضًا وراثيًا في عائلة والدك. وقد اعتذر كثيرًا لي عن إخفاء

حقيقة مرض أخوه وبرر ذلك بأنه كان يخشى أن أمرًا كهذا قد يخيفني من الارتباط به؛ فالمرض الوراثيّ قد تنتقل جيناته لأجيالٍ قادمةٍ بنسبةٍ كبيرةٍ. وهذا ما عرفه وأخفاه عني. كان وجود «وليد» خارج جدران المستشفى صعبًا للغاية بل مستحيلًا. كانت حالته تتطلب الرعاية والعلاج المستمر.

لم أعرف شيئا عن «وليد» إلا بعد أن أتيتِ أنتِ إلى الحياة. تطلّب الأمر منه شجاعةٌ قويةٌ ليبوح لي بهذا السر. أتعرفين؛ لقد أحببتُ والدكِ من جديدٍ عندها؟

أنا أتذكر كلامه لي بالحرف الواحد يومها:

«أنا أعرف جيدًا أنه ربما قد أكون مخطئًا؛ أو قد تعتبرينني أنانيًا لأنني أخفيتُ عليكِ سرًا كهذا. ولكن كل ما في الأمر أنني لم أكن أقوى أن أفقدكِ. لم أكن مستعدًا أن أتركك. كل ما فكرتُ به أنني أحبكِ... نعم فقط أحبكِ».

تمنيتُ سرًا أن تكون حياتنا طبيعيةٌ، وألا أحرمكِ من حقكِ بأن تصبحين أمًّا. كنت أسعى بكل الطرق كي أتأكد من تحاليل قبل الزواج، هل تتذكرين؟

ولن أخفيكِ سرًا فلم تكن التحاليل مطمئنةً بالقدر الكافي، ولكنها أيضًا لم تكن يائسة. كانت نسبة انتقال المرض العقليّ لابننا القادم، أو ابنتنا أقل من ثلاثين بالمائة. هل كنتِ تريدينني أن أنقل لكِ كل هذا القلق من أجل فقط هذه النسبة؟ هل كنتِ تريدينني أن أفقدكِ وأفقد معكِ حياتي وكل الأمل؟

نعم، أعرف أنها كانت مخاطرةً، ولكنني تعلقتُ بالأمل حتى

النهاية. كانت مخاطرةً تستحق الانتظار، ولكنني أيضًا لم أكن مجنونًا لكي أترككِ تحملين وتلدين قبل أن أتأكد من سلامة الحمل، أو نضطر للإجهاض، وأعتقد أنكِ تعرفين الباقي!

ولما جاءت ابنتنا الجميلة كانت فرحتي بها لا توصف، وقد اخترتِ أنتِ بنفسِكِ اسم «فرح» لها وفعلًا فقد كانت فرحًا وسعادةً وانتصارًا على اليأس.

لقد تلونت الحياة يوم ولادتها بالأمل، وتوجت بمجيئها قصة حبنا.

عرفت كل الحقيقة يومها، ولم أحزن لحظةً واحدةً. هل تعرفين لماذا؟ لأن ما فعله أبوكِ كان رائعًا بكل المقاييس.

كان مدهشًا في كل شيء. كان مبهرًا بذكائه. كان عظيمًا بحبه لي. كان سره هو الغلطة الوحيدة التي لم أحاسبه عليها. كان سره هو الغلطة التي لم أرد أبدًا إصلاحها. كان سره هو أجمل غلطة في الحياة؛ تلك التي أتت بك إلى عالمي.

ومنذ ذلك اليوم وهو يصطحبني معه لأرى سره وجهًا لوجهٍ. كنت أزور «وليد».

لم تكن زيارتنا عاديةٌ أبدًا في أي مرةٍ. كانت زيارةٌ مليئةٌ بالشجون والمشاعر التي لم تخلُ مرَّة من الحسرة. كان عمكِ شابًا وسيمًا طويل القامة ويملك ملامح رجولةٍ هادئةٍ مع لمسة حزنٍ تملأ عينيه. كان ذلك الحزن الذي يجعلك تشفقين عليه من أول نظرةٍ. لم يكن من السهل أن تعرفي حقيقة مرضه أبدًا. كان من الصعب أن تصدقي أن هذه الصورة التي أمامكِ ينقصها

العقل.

كان والدك يحبه بجنون. كان يشرف على رعايته وعلاجه وكل ما يخصه. لم يتأخر يومًا عليه. كان «وليد» برغم ذهاب عقله يشعر بالحب. لم أرَ بحياتي حبًّا كهذا؛ فبرغم حركاته الطفولية تارةً والعصبية تارةً إلا أنه كان يهدأ عندما يرى والدك. كان يغفو أحيانًا عندما يضع رأسه في حضنه. كان يطاوعه، ويأكل من يديه. كان حتما يشعر بصلة الدم التي تربطهما. كان والدكِ يشعر بمسئوليةٍ كبيرةٍ تجاهه؛ فقد كان الأخ الوحيد له، وكان الباقي الوحيد أيضًا من عائلته الصغيرة بعد وفاة والده ووالدته.

مضت سنواتك العشر الأولى في سلامٍ وحبٍ وأمانٍ. لم ينقطع والدكِ عن زيارته أبدًا، وكان دائمًا ما يوصيني به. لا أعرف ربما كان يشعر بقرب أجله!

حتى جاء هذا اليوم المشؤوم. يوم حادثة والدك. توقفتْ يومها عقارب الساعة عن الدوران. وانقلبت الحياة فوق رأسي من جديد.

لماذا تعاقبنا الحياة بهذه القسوة؟

لماذا تستخسر فينا الفرحة أحيانًا؟

لماذا تذوقنا حلاوة الأيام إذا كانت تعد لنا كأسا من المر بعدها؟

لماذا يرحل مَن نحب ويتركنا؟

لماذا يرحل مبكرًا الأنقياء والمخلصون والأخيار؟

لماذا ولماذا ولماذا؟

بعد وفاة والدكِ نفذت وصيته بالحرف الواحد. وضعت مبلغًا من المال باسم «وليد» في حسابٍ بنكيّ لكي تصله كل الاحتياجات اللازمة في وقتها تمامًا كما كان يفعل هو دائمًا. كنت أواظب على زيارته في المستشفى التابع لدار الأيتام.

وبعد وفاة والدك بشهرين فقط توفي «وليد»!

كنت أزوره باستمرارٍ، ولم أتوقع أبدًا أن ينتبه لغيابِ أخيه، حتى أن الطبيب المعالج له كان يؤكد لي هذا. كان يقول لي أنه من الصعب أن يدرك مَن زاره، ومن غاب عنه. ولكنني كنت أشعر في كل مرةٍ أن حالته تسوء عن المرة التي تسبقها. كنت أكذب كلام الطبيب وأصدق قلبي.

ربما لم يكن يملك العقل الذي يدرك به قيمة الأشياء ولكنْ ثمةَ أشياءٌ لا يستطيع العقل البشريّ استيعابها... ثمة أشياءٍ تقترب من روحِك وتلمس قلبَك وتحلو بها أيامُك.

وانتهت الحكاية... دفن السر معهما للأبد.

ولعلكِ تتساءلين لماذا أبوح لكِ بهذا الآن؟

لا تنتظري أن تأتيك الفرصة لتقومي بعمل الخير. اذهبي بنفسكِ إليه. اذهبي في كل فرصةٍ وكل مكانٍ. لا تجعلي حياتُكِ المشغولة تأكل قطعة الخير الموجودة في قلبِك والتي ولدنا جميعًا بها. لعلكِ تذوقتِ طعم السعادة وأنتِ بين الأطفال الأيتام. لعلكِ عرفتِ كم مبهجةٌ هي «ابتسامة الفقير». لعلكِ أدركتِ كم هي مؤثرةٌ دعوة المحتاج في روحك، وكم نحتاجها جميعًا.

لكل قصةٍ عبرةٌ ولكل حكايةٍ مغزى ولا تزال رسائل الحياة تصلنا وتعلمنا كل يومٍ درسًا جديدًا.

لقد بعث لي القدر برجلين، وقد أخلصتُ في حبهما حتى النهاية. نهاية كل قصةٍ. علمتني الحياة ألا أندم أبدًا على أي اختيارٍ اخترته بنفسي. نحن نستطيع أن نصنع سعادتنا بأنفسنا ونستطيع أيضًا أن نجلب لها البؤس والشقاء.

الحب هو محور هذه الحياة، بل هو الحياة نفسها. تأملي جيدًا هذه الرسائل، وابحثي جيدًا عن المغزى وراء كل الأشياء. إنه بلا شكٍ الحب. إنه الفطرة التي خلقنا الخالق عليها.

لقد أحببت الحياة برغم قسوتها. لقد أحببت عملي. لقد أحببت نفسي كثيرًا، ولم أبخل عليها يومًا. لقد أحببت عمل الخير. لقد أحببتُ والدكِ، وأحببت جنونَه بي. لقد أحببتُ منزلنا الهادئ وعائلتنا الصغيرة، ولقد أحببتكِ يا صغيرتي، وها أنا أعترف!

بقيتْ رسالةٌ واحدةٌ يا حبيبتي. سأكتبها لكِ قريبًا جدًا.

وإلى هذا الحين... أتمنى أن تستلهمي الحكمة من كل القصص التي حكيتها لكِ. أنْ تستشعري الحب في كل الأشياء من حولِك. أن تعيشي كل يومٍ وكأنه يومُك الأخير.

انهلي من كأس السعادةِ طالما هو في حوزتِك الآن؛ فلن تعرفي أبدًا متى سينفذ الكأس؟ ومتى سيكون متاحًا لكِ كأسًا جديدةً؟

إمضاء / ماما

حتى يحين اللقاء...

استلقت «فرح» على السرير تتأمل سقف غرفتها الواسعة. سرحت بين كلمات أمها وبين الحكايات. دائمًا ما يسود الصمت بعد كل الرسائل. دائمًا ما ينتابها الحنين من جديدٍ. دائمًا ما تشعرها الرسائل بالوحدة من جديدٍ.

أصعب أنواع الصمت هو ذلك الذي يزيح الكلمات من العقل ويزحزح المشاعر في القلب ويتركك تتألم وحيدًا مستمتعا بهدوءٍ مزيفٍ وصمتٍ حزينٍ!

يا لسخرية القدر... فقد ضحى «عادل» بحبه من أجل سعادة أمي. تنحى عن أنانية الرجال وأخفى حبه في قلبه ولكنه أبدًا لم يدفنه، كان يحيا بحبها برغم بعدها عنه. كان يعيش حياتها وكأنه جزءًا منها. كان يتخيلها، يحلم بها، كانت تزوره في أحلامه كل ليلةٍ. كان سعيدًا بسعادتها.

كانت حياة حبه قصيرةٌ تمامًا مثل حياة أمي!

أما قصة أبي فتحتاج لعقلٍ كبيرٍ وقلبٍ بسعةِ قلب أبي لتتسع لكل ما بها من أحاسيس. إنه رجلٌ من طرازٍ خاصٍ جدًا. رجلٌ قلّما تجود به الأيام. إنه الرجل الذي كنت أتمنى أن أشاركه كلّ لحظات الحياة. رجلٌ عرف كيف يكون الأمل حياة. لقد تمسك بكل ذرات الأمل التي جاءت في طريقه.

لقد غزل من خيوط الأمل عقدًا من الحب ولم يفرّطْ أبدًا بحبات اللؤلؤ التي كانت تضيء له الطريق حتى النهاية.

إنها قصة حبٍّ تغلّب فيها الحب على خوفه من المجهول. إنها قصةُ حبٍ تغلبتْ على الضعف والخوف.

تلك قصصٌ تحتاج لحبٍّ شجاعٍ، وقلبٍ لا يخاف وشخصين لن يفرقهما إلا الموت!

الرسالة العاشرة والأخيرة

(السعادة)

(مت فارغا)

في مدينة فينسيا العائمة يستعد الجميع لفيلم «عمر» الجديد، وتستعد العائلة الكبيرة لحفل الزفاف الذي تجري تجهيزاته منذ شهورٍ. مر على وفاة أمها الآن سنتان ونصف، لم تتركها لحظة واحدة. كانت تشاركها فرحها وحزنها. كانت تشعر بوحدتها وبحنينها. كانت ترافقها بروحها التي لم تغب يومًا عنها.

ربما تكون هذه الفكرة وحدها هي ما تطمئنني حينما يراودني قلبي على الحزن، عندما يحاول أن يذكرني كيف سيكون الألم بفقدان عزيزٍ للأبد. عندما يعبث معي فتصيبني الشجون فأبكي بلا سببٍ لمجرد التفكير بأن يومًا ما سيرحل من نحبهم. إنها فكرة وجود أرواحهم بيننا. ستشعرني ذكرياتي معهم بهم في كل الأوقات. ستذكرني الكلمات، ستذكرني أكلاتهم المفضلة، ستذكرني ألوانهم التي كانوا يفضلونها، ستذكرني الأماكن، ستذكرني التفاصيل، ستذكرني الأغاني، ستذكرني الحياة بهم كل يوم. سأتذكرهم حتى لا أكاد ألاحظ غيابهم يومًا.

وفي مقهى هادئٍ يجلس «عمر» وتجلس أمامه حبيبته «فرح» بينما يدندن الميكروفون بأغنية:

أو «قبلني كثيرا» Bésame mucho

لمغني الأوبرا الإيطالي الرائع «أندريا بوتشيلي» تقول كلماتها:

قبّلني، قبّلني كثيرًا

كما لو أن الليلة هي المرة الأخيرة

قبّلني، قبّلني كثيرًا

فإنني أخاف أن تضيع، أن تضيع مني

أريد أن أنظر في عينيك

وأن تقترب مني أكثر وأراك قربي

أظن أنه ربما غدًا

قد أكون بعيدًا

بعيدًا جدًا عن هنا

قبّلني، قبّلني كثيرًا.

حتى كلمات الأغنية تخاف من الغد. يقولون إن العاشق أكثر مَن يخشى الغد. فكل حلاوة الحب تكمن في البدايات، ويقولون أيضًا أن أول الأشياء أكثرها إثارة.

بل وإن لمطرب الأغنية حكايةٌ غريبةٌ مع القدر تتشابه كثيرًا مع قصة «فرح». تلك القصص التي تحدث فقط من أجل أن تلهمنا لسنينٍ طويلة.

«بوتشيلي» هو الطفل الذي قرر الأطباء إجهاضه وتمسكت به أمه. إنها شجاعة أم قررتْ ألّا تحرم جنينها من الحياة مهما كان.

لم تكن تعلم أن ابنها سيكون أحد أعظم مطربي الأوبرا عبر التاريخ، ولكنها أحبته ومنحته الحياة التي يستحقها.

فقد «بوتشيلي» بصره تماماً في سن الثانية عشر، ولكنه أطلّ أمام الملايين التي عشقت صوته حتى قال عنه أحدهم: «إن الخالق قد وهبه هذا الصوت حتى يكاد يصل إليه».

تتشابه حكايات القدر، وما زالت الحياة تثير شهيتنا للمزيد من الإثارة وللمزيد من الجنون وما زلنا لم نفهمها جيدًا حتى الآن. بل إنها تزداد غموضًا كلما حاولنا فهمها!

وهل يوجد في الدنيا أكثر إثارةٍ من الحب الطازج؟

ذلك الشعور اللذيذ بكل شيء. ذلك الإحساس الجديد بطعم الأشياء. ذلك الاكتشاف المدهش لكل حواسك وكأنك تتعرف عليها لأول مرة.

ستستمتع كل يومٍ بوجبةٍ من المشاعر الساخنة التي يعدها لك قلبك حينما تقع في الحب. سترى عيناك أشجارًا من الياسمين. ستسمع أذناك ألحانًا من الموسيقى. ستشعر أنفاسُك بطعم السكر. أما شفتاك فستتذوق حلوى الغرام. ستلمس بقلبك الحياة.

يستمتع العاشقان بأيامٍ من الحب سخيةً كالحقول البكر التي تنتظر هطول مطر الشتاء فتتفتح البراعم وتزهر في ربيعٍ دائم.

كان يحكي لها عن أحلامه التي باتت نصب عينيه. كانت هي أجمل أحلامه؛ فكل الأحلام ننام ونصحو على غيرها إلا ذلك الحلم الذي

ستغفو وتصحو تراه باقي أيام العمر.

أحب ذلك المشهد قبل الأخير قبل إسدال الستار مباشرة. ذلك المشهد الذي يحوي كل المشاعر، كل الأحداث، كل الخيوط الأخيرة التي تربط العقدة وتنتهي الحدوتة.

– أخبار رسايل ماما إيه؟ سألها «عمر» حيث بدأ يتابع كل رسالة منذ أن ارتبطا.

– فاضل رسالة واحدة بس... زي ما طنط «ثريا» قالت لي... وموعدها بعد شهرين... يعني قبل الفرح بكام يوم بس. ردت «فرح».

– تفتكري حيكون فيها إيه؟ سأل «عمر» بحماسٍ ملحوظٍ.

– مش عارفة... بس أنا مش عايزة الرسايل تخلص يا «عمر»... مش عايزة احس إني لوحدي. قالت «فرح» وكادت تبكي.

– يا حبيبتي الرسايل كان لازم حيجيلها يوم وتخلص... ماما كانت عايزة تاخد بإيدك واحدة واحدة لبر الأمان... كانت عايزة تعودك على فراقها بس بطريقة سهلة... ويوم لما تخلص الرسايل حيفضل مفعولها في قلبك وروحك طول العمر. رد «عمر».

– إنت متعرفش أنا قد إيه كنت متعلقة بأمي... كان ماليش غيرها في الدنيا... عمري ما فكرت في إنها تسيبني فجأة كده وتمشي... بس هي كانت قوية وعمرها ما استسلمت، و أنا لازم أكون زيها. قالت «فرح» ثم توقفت الكلمات على شفتيها وسكتت قليلًا كأنها تذكرت شيئًا!

– أنا افتكرت حاجة مهمة! أنا حلمت بيك امبارح يا «عمر»!

– بجد؟ طيب مالك مستغربة كده ليه؟ ما انا بحلم بيكي كل يوم.

قال «عمر» و ابتسم بمكرٍ وترقبٍ.

– لأ بس الحلم ده كنت بحلم بيه كتير... و انت بس امبارح ظهرت فيه! ردت «فرح» ثم أكملت قائلةً:

– حلمت كذا مرة إني بروح عند نافورة تريفي ومعايا شنطة كبيرة... ولما بفتحها علشان أدوّر على عملات معدنية أرميها في النافورة مش بلاقي غير رسايل ماما، بس بيكون لونهم اتغير وكأن مر عليهم سنين... وبلاقي جوه كل رسالة عملة واحدة بس... باخدهم كلهم علشان أرميهم في النافورة بسمع صوت من ورايا بيقولي نفس الكلام كل مرة!

الصوت بيقول:

«لا تحاولي أن تخدعي النافورة... افتحي قلبك وارمِ كل أمنياتك، و أنتِ ترمين النقود... لا تتركي شيئًا عالقًا به... لا تخشِ شيئًا فكل الأمنيات يمكنها أن تتحقق... فقط لو أطلقتِ سراحها».

وأول ما اتلفت علشان اعرف صوت مين ده مش بلاقي حد أبدًا وبصحى بعدها من النوم!

– طيب أنا فين في الحلم ده؟ سأل «عمر» متعجبًا.

– إنت صاحب الصوت ده! شفتك امبارح بس في الحلم. ردت «فرح» بفرحةٍ وتأثرٍ ثم سألته:

– تفتكر إيه تفسير الحلم ده؟

– الحلم متفسر يا «فرح»... دي رسالة جديدة من ماما... بتقولك فيها إنها حتمشي و انك لازم تكملي في حياتك وتحققي

أحلامك بنفسك... وطبعًا واضح من الحلم إني كنت حلم من أحلامك و اتحقق. قال «عمر» بضحكة مداعبةٍ بخبثٍ.

– إنت الحب اللي كنت بحلم ألاقيه... إنت الحياة اللي اتمنيت أعيشها... إنت الحلم اللي كل بنت بتتمنى تحققه... إنت كل الأحلام الجميلة. قالت «فرح» وقد ارتسمت علامات الحب على وجهها وتلألأت عيناها بدموعِ الفرحة الممزوجة بالحنين.

– أنا بحبك.

– و انا كمان بحبك.

ثم...

وما زالت الأغنية تدندن في الخلفية، وما زال «بوتشيلي» يغني ويقول «قبّلني كثيرًا»... فهل يفعلها «عمر»؟

ما زالت عيناها المتلئلتان بالدموع تناديه، وما زالت كسرة الحزن بهما تزيدها أنوثةً. هل تزداد دلالًا بهذه اللمحة الحزينة؟ أوهل تزداد وجنتيها حمرة؟ أم هل تزداد شفتاها اكتنازًا؟ فهل ستفلت منه هاتان الشفتان بهذه السهولة؟

يقولون إن أجمل القبلات تلك التي تبدأ بقليلٍ من التحفظ في التقاط شفتي حبيبتكَ، ثم تغريك أنفاسها المتلاحقة للمزيد؛ فيذهب التحفظ، ويذهب معه عقلك، ويأتي الجنون المعجون بالحمى والرغبة، وشهوة الغرام.

«قبّلني، قبّلني كثيرًا

كما لو أن الليلة هي المرة الأخيرة

قبّلني، قبّلني كثيرًا

فإنني لأخاف أن تضيع، أن تضيع مني».

إنه الثامن من تشرين، أو من شهر أكتوبر. إنه بدايةٌ لفصلٍ من فصول السنة، وبدايةٌ للفصل الأخير من فصول الرواية. فصل الخريف الغامض بأجوائه المتقلبة أحيانًا، والساكنة أحيانًا أخرى. إنه الفصل الذي يفصل دائمًا برد الشتاء عن حر الصيف.

«وما بين فصل الخريف وفصل الشتاء هنالك فصلٌ أسميه فصل البكاء تكون به النفس أقرب من أي وقتٍ الى السماء».
نزار قباني

ربما انتهى وقت البكاء في قصتنا ولكن النفس الآن أقرب إلى السماء من أي وقتٍ مضى، وها هي السماء تشهد الحب والفرح بعد الوحدة والألم.

ستشهد حياة بشكلها الأجمل على الإطلاق. حياةٌ بلون الحب.

تجمع الأصدقاء والأقارب في فندق «ساتورينا» وهو أحد الفنادق العريقة التي تم بناؤها سنة 1908 ويقع على مقربة من ساحة القديس سان ماركو الشهيرة، والتي تعد مقصدًا مهمًّا لكل المهتمين بالفن المعماريّ والهندسة والتاريخ والرومانسية.

مدينة البندقية تحفةٌ معماريةٌ عائمةٌ؛ فهي جميلةٌ في أزقّتها، في ساحاتها، في سحرها. هي مرآةٌ تعكس صورةً فنيةً على البحيرات عبر جندولها وممراتِها الهادئة. ستشعر بأنك قد سافرت عبر الزمن إلى القرن الثامن العشر. ستشعر بعبق التاريخ و أنت تتنزه بين البيوت القديمة بالجندول. إنها المدينة الأكثر رومانسية في العالم؛ فلا عجب

أنهم يسمونها قبلة العشاق. هي أشبه بالمتعة الروحية الممتزجة بالعشق الوجودى؛ ففي البندقية يمتزج النار بالماء، والبشر بالحجر، والحب بالسحر. إنها مدينة السحر والعشق والأساطير.

وما الصباحات إلا اجترارٍ مقيتٍ للوقت، بينما صباحات «فينسيا» ترفُّ بنكهة البن الإيطاليّ.

اليوم ستشهد المدينة الساحرة ذات المناخ الإيطاليّ النبيل والأجواء التاريخية الحالمة اكتمال قصة حب قلبين تعاهدا على السير معًا حتى آخر العمر. تعاهدا على البقاء معًا حتى نهاية الحياة. في السراء والضراء، في الغنى والفقر، في الصحة والمرض، وحتى يفرقهما الموت.

سيقام الحفل في قاعة الفندق التي حجزها «عمر» خِصّيصًا لاحتفالين: احتفالٌ انتهاؤه من تصوير فيلمه الأخير، واحتفالٌ آخر بزواجه من حبيبته التي أتي بها القدر من بلادٍ بعيدةٍ تحت ظروفٍ سرية من القدر رتبتُ لها خِصّيصًا.

دائمًا ما تثير شهيتي للتأمل تلك الصدف الغريبة التي تجمع الناس ببعضهم؛ فأتأمل الحكمة وراء الأحداث السيئة في حياتنا؛ فلولا الفراق، والموت، والألم لما عرفتنا الحياة على الوجه الآخر لها. دائمًا ما يأتي اليسر مصاحبًا لكل عسرٍ في حياتنا، ولكن للحصول على هذا اليسر شروط لن تتنازل عنها الحياة: أنها الصبر والأمل وبعض الوقت.

لا يوجد لقاءات عبثية في الحياة. كل إنسانٍ تصادفه هو إمّا اختبارٌ، أو عقوبةٌ، أو هديةٌ من السماء.

قررتْ العروس أن تؤجل قراءة رسالة أمها الأخيرة حتى يقترب يوم العرس، برغم أنها تسلمتها من طنط «ثريا» في موعدها المحدد، ولكنها المرة الأولى ولعلها ستكون الأخيرة التي ستقرأ رسالة أمها التي تأتيها من عالمٍ آخر، فقررت أن تقرأها بمزاجٍ خاصٍ وبطقوسٍ جديدةٍ هذه المرة فقط!

ستقرؤها أمام نافورة تريفى في روما، ولن تكون بمفردها هذه المرة، سيصاحبها «عمر».

ومن فينسيا إلى روما سافر الحبيبان بالقطار الذي تستغرق رحلته الأربع ساعاتٍ تقريبًا. للسفر بالقطار متعةٌ خاصةٌ لا تضاهيها أي متعةٍ؛ فساعات السفر ليست للنوم أبدًا وخاصةً إذا كانت الجنة تحاوطك من الجانبين. الوديان، والحقول الإيطالية الشاسعة ستعانق قطارَك طوال الطريق. ستحاوطك السماء الزرقاء والأشجار بتدرجاتها الخضراء، ولأنّ قطاراتِ أوروبا معروفةٌ برفاهيتها، وسخائها بالجمال فلن تملَّ أبدًا من هذا الترف، وكيف يملُّ مَن كان بصحبة مَن يحب؟

كانت «فرح» تضع رسالة أمها الأخيرة في حقيبتها التي لم تفارقها أبدًا، كانت تحتضنها وكأنها تمسك بيد أمها التي لم تتركها لحظة واحدة، وكانت باليد الثانية تتشبث بذراع «عمر». وعلى شباك القطار وضعتْ رأسها وراحت تتأمل كل هذا الجمال. كانت عيناها تنظر للحياة بينما عقلها يراجع ملفاتِه الكثيرة ويذكّرها بها، لا أعرف حقًا أي علاقةٍ تلك التي تربط العين بالعقل؛ فتجبرك الصور على التذكر، وتتجلى الذكريات، وتأمرك أمرًا... «إياك أن تنساني!»

وأمام نافورة تريفي أو «فونتانا دي تريفي» كما تقال في اللغة

الإيطالية يتجمع الناس من كل الأنحاء. يأتون من أجل أسطورة الأماني الثرية.

فما زالت تلك النافورة تتمتع بمهابة أسطورتها الجذابة للسياح، والتي تؤكد أنّ كل من يلقي بقطعة نقودٍ متمنيًا أمنيةً سيحظى بفرصة تحقيق أمنيته بشرط أن يلحقها بأمنيةٍ أخرى صادقة، وهي العودة إلى النافورة لشكرها مجددًا بقطعةٍ نقديةٍ أخرى إن تحققت أمنيته الأولى، ومن أجل هذه الأسطورة ما زال الزوار يلقون بقطعهم النقدية المعدنية يوميًا في بركة النافورة على أمل تحقق أمنياتهم الكبيرة والصغيرة بسخاء.

فتحت «فرح» الرسالة الأخيرة لأمها. كانت تتعمد أن تتمهل كل شيء وكأنها تحاول ألا تنتهي هذه اللحظات الثمينة سريعًا. لم تكن مجرد فكرة أنها الرسالة الأخيرة هو ما يخيفها، بل ما تحويه الرسالة هو ما يخيفها أكثر. هل كانت تشعر أمي بآلام المرض وهي تكتب هذه الرسالة؟ هل كانت تعرف أن موعدها مع الحياة قد قارب على الانتهاء؟ ما الذي جعلها تتوقف عن إرسال المزيد من الرسائل؟ لماذا لم تترك لي رسائل حتى نهاية العمر؟ لماذا يغيب مَن نحب ولا نقوى على النسيان أبدًا مهما حاولنا؟

الرسالة الأخيرة...

ابنتي الغالية...

ستكون هذه رسالتي الأخيرة لكِ. أعترف لكِ الآن فقط أنني لم أحب يومًا كلمة «الأخير» هذه؛ لأن لا شيئًا نهائيًا في هذه الحياة؛ فكل ما ينتهي يبدأ غيره، وكل «أخيرٍ» سيتبعه «أول

«جديد. لقد قررتُ أن أنتهي من كتابة رسائلي لكِ اليوم. ليس لأن جعبتي قد انتهت من الكلمات، وليس بسبب المرض كما قد تتصورين. ولكنها النهاية يا صغيرتي. يجب أن تنتهي الأشياء التي نحبها، ونألفها يومًا ما. هكذا علمتني الحياة.

لقد قررتُ اليوم أن «أموت فارغةً»!

«Die Empty»

إنه عنوانٌ لكتابٍ قرأته.

يقول مؤلف الكتاب أنّ أغنى أرضٍ في العالم هي المقبرة!

إنها ليست دول الخليج العامرة بالنفط، ولا هي مناجم الألماس في أفريقيا. إنها المقبرة!

فقد رحل ملايين البشر عن عالمنا هذا ودفنتْ معهم أفكارًا قيّمةً لم تخرج للنور بعد ولم يستفد منها أحدٌ سوى المقبرة التي دُفِنوا فيها. بذل مؤلف الكتاب مجهودًا كبيرًا لكي يحفّز البشر أن يفرغوا ما بداخلهم من طاقاتٍ وأفكارٍ قبل فوات الأوان.

وأجمل ما قال في الكتاب جملةً «لا تذهب لقبرِك وأنت تحمل بداخلك أفضل ما لديك. اختر دائمًا أن تموت فارغًا».

للوهلة الأولى كنت أتصور أن ما يعنيه الكاتب ب «مِتْ فارغًا» هو أن نموت فارغين من هموم الدنيا، من آلامها، من المعاصي والآثام، من كل شيء يزعجنا، ولكنني تفاجأتُ بمعناها وهي أن نموت فارغين من كل الخير الذي بداخلنا، نسلمه لغيرنا قبل أن نرحل، فإذا كانت لدينا فكرةٌ ننفذها. هدفٌ نحققه. حبٌّ ننشره ونوزعه بالعدل.

«لا تكتم الخير أبدًا داخلك فتموتُ ممتلأً متْخمًا».

وأنا أقرأ الكتاب تذكرت قول الرسول عليه الصلاة والسلام (وإذا قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلةٌ فليزرعها) وكيف يا رسول الله أن نزرع النبتة وقد قامت الساعة؟ يريدنا الرسول أن نموت فارغين، أن نفعل الخير حتى آخر يوم في حياتنا، أن نعيش كل يومٍ وكأنه آخر يومٍ، أن نعطي كل ما نملك، أن نبذل من الطاقة أقصاها، ومن العمل أفضله، ومن الإبداع أروعه، أن نكون ملهمين، متفائلين، أن نكون فارغين حتى تسمو أرواحنا وتحلق عاليًا.

أعتقد يا حبيبتي هذا ما فعلته أملِك تمامًا!

لقد أفرغت كل ما في عقلي وقلبي من خلال رسائلي إليكِ، وإليك سرًا لا تعرفينه، لقد شجعتني هذه الرسائل بأن أحكي كل شيء. لقد غرقت في بحر الكلمات وأنا أكتب لكِ. لقد غصتُ داخل ذاكرة حياتي فإذًا بها تفاجئني بكل ما اعتقدتُ أنني نسيته، واليوم بقي شيء أخيٌر قبل أن أذهب أريدكِ أن تعرفيه جيدًا.

إنه الشيء الذي نسعى طيلة حياتنا لتحقيقه. إنه الشيء الذي نملكه ولكننا لا نكفّ أبدًا عن البحث عنه.

السعادة!

دائما ما حيّرتني كلمة «السعادة» هذه. هل كنتِ سعيدةً؟ هل عشتِ حياةً سعيدةً؟ هل ما كنتُ أشعر به كان هو منتهى السعادة؟ وما منتهى السعادة؟ مَنْ مِنّا يا تُرى يقيّم السعادة؟

يقولون أن السعادة هي سعادة النفس لا شيئًا آخر. وكل

الأشياء الأخرى ما هي إلا وسائل لتحقيق السعادة ولكنها ليست مصدر السعادة الأساسيّ. نحن مصدر السعادة الوحيد. نحن الوحيدون القادرون على أن نصبح سعداء أو نظل تعساء. السعادة اختيارٌ خاصٌّ جدًا. السعادة فنٌّ رفيعٌ وعلينا جميعًا أن نتقن تعلمه.

والآن يا صغيرتي هل لي أن أسألك: أين وجدتِ سعادتكِ؟

تأملي الرسائل من بدايتها وحاولي الإجابة على سؤالي: هل وجدتِ سعادتكِ في الحرية أم العطاء؟

هل تذوقتِ طعم الفرحة في السفر؟

هل غمرتكِ الموسيقى بنشوةٍ استثنائيةٍ؟

هل أصابك ارتفاع معدل الأدرنالين بالجنون؟

هل حقق لكِ عملكِ السعادةَ التي كنتِ تحلمين بها؟

هل عرفتِ أن كل سعادة الدنيا تصيبكِ عندما تقعين في الحب؟

هل تذوقتِ طعم الحياة وهي محلّاةٌ بالحب؟ هل عرفتِ معنى أن تقتسمي بعض نفسكِ مع شخصٍ آخر أقرب إليكِ من نفسكِ؟ هل عرفتِ معنى أن يهديَكِ القدر روحًا جديدةً لتسكنكِ؟ هل اكتشفتِ كم أنتِ جميلةٌ عندما وجدتِ الحب؟ هل تلمستِ مواطنًا خفيّةً في شخصيتك لولا الحب لما عرفتِها؟ هل أوصلكِ الحب للجنون فلم تعودي تلقي بالًا للعقل؟ هل أصبحتْ زقزقةُ العصافيرِ تطربكِ؟ وهل أصبح الليل رفيقكِ في ليالي الشوق؟

هل أدمنتِ قهوة الحب؟ تلك التي لا أحد يعرف تمامًا مم تتكون؟ ولكنهم يقولون أنها مكونةٌ من حبات البن المحمص بتوليفةٍ غراميةٍ فواحةٍ، مع تحويجةٍ خاصةٍ جدًا من بذور العشق مع رشة جنونٍ وكثيرٍ من اللهفة والحنين. تكفيكِ مرةً واحدةً، أو مرتين على الأكثر لإدمان تلك الخلطة الساحرة!

يقال أنّ لكل حبٍ مذاقه المميز. فلن تجدي حبًا يشبه الآخر. تمامًا مثل حبوب البن؛ فقد تتشابه رائحة البن؛ وقد تشعرين بنفس نشوة الغرام، ولكن سيظل تأثير الحب مختلفًا في كل مرة!

أتمنى أن تحصلي يا صغيرتي على هذا الحب يومًا ما؛ فقد كان القدر كريمًا جدًا مع أمك وقد حصلتْ على مقدارٍ لا بأس به من الحب في هذه الحياة.

هل تذكرين رسالتي الأولى لكِ؟ هل تذكرين كيف حكيتُ لكِ عن أهمية الحب في الحياة؟ هل قلتُ لكِ يومًا عن المقولة التي أعيش بها؟ تلك التي قالها جلال الدين الرومي عن الحب:

«لا تكن بلا حبٍّ؛ كي لا تشعر بأنك ميْتٌ. مِتْ في الحبِّ وابقَ حيًا للأبد»

السر يكمن في أن تجدي السعادة في كل ما تقدمه لكِ الحياة، ولكنكِ يجب أن تعلمي جيدًا أن الحياة لن تحبك في كل مراحل حياتك؛ فهي للأسف قد تغدر بكِ وبحبها لكِ في أي وقتٍ. وعندها فقط ذخيرة الحب التي تدخرينها في قلبك ستكون هي طوق النجاة الذي سينقذك في الحال.

لقد استنفذت كل طاقتي بحثًا عن السعادة في كل أركان الحياة الواسعة. لم أكفّ يومًا عن البحث. أُغلِقَتْ في وجهي أبوابًا ووُضِعتْ العراقيل في طريقي أكثر من مرةٍ. لن أداري ضعفي عليكِ يا صغيرتي وأمثّل دور البطولة أمامكِ، فقد ضعفتُ كثيرًا أمام تلك الصعوبات. لقد أُحبَطْتُ كثيرًا وتسرب الأملُ من بين يديّ أكثر من مرةٍ. ضعفتُ ولكنني صبرتُ. أُحْبَطْتُ ولكنني بحثت عن أملٍ جديدٍ.

نعم، تعذبت ولكنني تعلمت. فالحياة لا تعطي دروسًا مجانيةً!

يا صغيرتي...

لن تكون هذه كلماتي الأخيرة...

لن تكون هذه رسالتي الأخيرة...

ربما لن تصلك أي رسائلٍ مني بعد الآن...

ولكن الحياة لن تكفّ يومًا عن مراسلتك!

ابنتي الغالية...

أبقِ عينيكِ مفتوحتين دائمًا لأن كل ما في الحياة يمكن أن يلهمك.

ستكبرين وتعرفين أن كل الطرق لا تؤدي إلى روما بل لما ترغبين به.

ستدركين أن الإبرة قد تضيع في كومةِ القشِّ ولكنكِ حتمًا ستجدينها في النهاية.

ستعرفين أن سحابة الصيف تحمل الظلّ، وإن لم تمطر.

ستتأكدين أن كل ما يدركه المرء يستطيع أن يدركه لو أراد.

ستكبرين وتتعلمين أن كل مأزقٍ لم يأخذ من قوتِك شيئًا بل إنه يصنع منكِ شخصًا أفضل دون أن تشعري.

قد تعتقدين أن الموت هو النهاية ولكنه حتمًا بدايةً لحياةٍ جديدةٍ.

يا صغيرتي...

لن أغيب عنكِ أبدًا...

أعرف أنّ كلماتي ستظل دومًا حيةً في قلبك...

سأبقى أنا في قلبكِ وعقلِك أينما كنت...

سأرعاكِ بحبي ودعواتي لكِ...

ستكون كل السعادة من نصيبِك...

ستكون كل الحياة ملكًا لكِ...

ستكون الحياة عادلةً حتى لو بدت لك غير ذلك...

حِبّي من كل قلبِك...

اخلصي من كل قلبِك...

ابقِ سعيدةً من كل قلبِك...

تفاني في حب نفسِك...

سر السعادة ليس فقط في وجودي بجوارك الآن... لكن كل السعادة كانت وما زالت في وجودِك ووجودي معكِ في هذه الحياة.

موعدنا معًا على هذه الأرض كان مقدّرًا... .

أن تكوني ابنتي وأكون أنا أمِّك؛ فتلك سعادةٌ لا تضاهيها أي سعادةٍ في الكون...

ولو أن الحياة لم تعطِن إلا هذا؛ فهذا يكفيني لأنْ أكون ممتنّةً جدًا لها...

أنا مدينةٌ لكِ وللحياة بهذه السعادة التي أشعر بها الآن...

حبيبتي الغالية...

أحبكِ كثيرًا... كثيرًا جدًا... وسأظل أحبكِ... حتى يحين اللقاء.

انتهت الرسالة وبدأ نهرٌ من الدموع. انتهت الكلمات بعدما أتت على كل جروح القلب.

انتهى عمر أحدهم وما زالت الحياة مستمرة. وغدًا سينتهي عمرٌ جديدٌ ولن تتوقف العجلة عن الدوران حتى ذلك اليوم الذي سينتهي فيه عمر الحياة وعندها فقط...

سيحين اللقاء!

كان لوجوده اليوم معنىً كبيرًا. كان لحبه اليوم مذاقًا جديدًا. كان لحضنه اليوم فرقًا كبيرًا. كان «عمر» هو البطل الجديد الذي أتى به القدر ليحل محل بطلة حياة «فرح» الراحلة. جاء به الزمن ليكمل دور الحب الذي لم ينتهِ يومًا.

تتنوع نغمات الحب في حياتنا؛ فنبدؤها بالسُّلَّم الموسيقيّ للحب الذي تتلوه علينا أمهاتنا ونحن نخطو أولى خطواتنا في هذه الدنيا، ثم نلتقط نغمةً جديدةً كل يومٍ، حتى يأتي ذلك

اليوم الذي تداعبنا فيه نغمةٌ صارخةٌ متأججة الذبذبات، عالية التردد، تبعثر كل مفاتيح الإيقاع وترتبك كل النوت الموسيقية التي تعلمتها. إنها النغمة التي ترقص مع قلبك التانجو حتى نهاية العمر!

توقفت عن البكاء ونظرت إلى عينيه مباشرةً. كانت مجرد نظرةٍ ولكنها قالت كل شيء.

قالت له: لا تتركني أبدًا...

قالت له: أخاف عليك من الموت...

قالت له: أخشى عليك من حبي...

هل ستتركني أنت أيضًا يومًا ما؟

ثم ارتمت ثانيةً في حضنه وضمّت يديها عليه وكأنها تخفيه عن الدنيا، وكأنها تستجدي القدر أن يتركه لها.

اختبأت داخل معطفه الأسود الصوف وتدثّرت من بَرد الحياة في حضنه. التحفت بقلبه وأنفاسه لعلها تشعر بالدفء، ثم أغمضت عينيها في محاولةٍ منها لإيقاف كل تلك الأفكار المتلاطمة داخل رأسها، ثم سمعت دقات قلبه تخفق تحت أذنيها برغم كل هذا الضجيج. حتما هي تدق لها ومن أجلها.

ستحيا من أجل هذا الحب الذي منحه لها القدر.

ستحيا من أجل هذا القلب الذي ينبض بحبها.

ستحيا من أجله لأنه لا أحد هنا سواه يحبها.

هل انتهت القصة؟

لا... بل إنها لم تبدأ بعد!

إنها الرسالة الأخيرة في قصة «فرح». إنها الرسالة التي تحتوي على كل شيء. الرسالة التي تجمع كل قصاصات الحياة. الرسالة التي تجمع الماضي والحاضر، الحنين والحب، الفرح والحزن، القرب والبعد، الخوف والأمان، الرغبة والرهبة، إنها رسالة الحياة والموت... إنها الحياة!

وعلى أحد ضفاف المدينة العائمة في الجمال تبدأ مراسم العرس.

تكون الفرحة دائمًا من نصيب من قرأ الرسائل جيدًا، مَن تعرّف على الإشارات التي أرسلها القدر. مَن تيقظ لكل العلامات. مَن تعلم الدرس ونجح في امتحان الحياة.

وها هي العروس الجميلة تطل بالفستان الأبيض ذو التصميم الإيطاليّ الهادئ. تتدلى الطرحة فوق رأسها، وتغطي وجهها. تمشي فوق جسر «ريالتو» الشهير والمتلألئ الليلة بمصابيحٍ ملونةٍ تتراقص بهجةً مع نسمات الهواء الخفيفة، وفوق الجسر الذي تجري تحته قناة «جراند» الشهيرة تمشي العروس متأبطةً ذراع والد العريس، وهو يخطو بحذرٍ فوق الجسر ليسلمها لابنه الذي ينتظر على الجانب الآخر ببدلته الأنيقة الراقية.

كم أحب هذا المشهد الحميم بالمشاعر، والمغلف بالسعادة التي ودون أن تقصد تسري في كل المكان، وتغمر الأجواء والأشخاص وحتى البنايات والمراكب والبحر.

يلون الحب المشهد بريشةٍ ناعمةٍ فترى الألوان تتهادى

فوق الوجوه، ترى لمعة الفرح في عيون كل الحاضرين، ترى كل الطيور وهي تحلق في السماء بتواطؤٍ جميلٍ مع الطبيعة وهي تعلن عن بداية قصة قلبين جمعهما القدر. تقاسما الحزن تارةً والفرح تاراتٍ، الجنون مرةً والأمل مراتٍ... والحب إلى الأبد!

وبنهاية قصةٍ، تبدأ قصةٌ جديدةٌ وتستمر الحكايات...

لحظةٌ واحدةٌ قد تغير حياتك، تجعلك عاشقًا أو تائهًا.

ابتسامةٌ واحدةٌ قد تغير يومك، تتركك سعيدًا أو هائمًا.

كلمةٌ واحدةٌ قد تصنع حياتك.

والحياة حافلةٌ باللحظات والابتسامات والكلمات... كلها لك.

هل أنت مسيّر أم مخيّر؟ هل نتبع جميعًا قدرًا واحدًا لا نحيد عنه منذ ولدنا؟

هل بإمكاننا التلاعب بأقدارنا؟

هل بإمكاننا التحايل مع الترتيبات المسبقة للقدر؟

هل ننتظر جميعًا رسائل الحياة؟

قد تصلك رسالةٌ اليوم أو غدًا.

فكن مستعدًا دائمًا!

حتى يحين اللقاء...

❁❁❁

أمل حجازي

Book Review

كما نثق بكتابنا نثق بصوتك / هنا نصغي إليك!

الهالة للنشر والتوزيع
AL HALA PUBLISHING & DISTRIBUTION

تواصل معنا، ونحن نسمعك!

https://www.facebook.com/alhalapublishing

info@alhalapublishing.com